

إلياس كانيتي

محاكمة كافكا الأخرى

رسائل كافكا إلى فيلس



ترجمة وتقديم:
نعيمان عثمان

Jadawel جداول

إلياس كانيتي

محاكمة كافكا الأخرى

رسائل كافكا إلى فيلس

ترجمة وتقديم:

نعيمان عثمان

جداول Jadawel

Elias Canetti

Kafka's other Trial

The Letters to Felice

Translated by:

Christopher Middleton

(London: Calder and Boyars, 1974)

الكتاب: **محاكمة كافكا الأخرى.. رسائل كافكا إلى فيلس**
المؤلف: **إلياس كانيتي**
ترجمة وتقديم: **نعيمان عثمان**

جداول
للنشر والترجمة والتوزيع
رأس بيروت - شارع كراكاس - بناية البركة - الطابق الأول
هاتف: 00961 1 746638 - فاكس: 00961 1 746637
ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان
e-mail: d.jadawel@gmail.com
www.jadawel.net

الطبعة الأولى: 2002
الطبعة الثانية: شباط / فبراير 2014
ISBN 978-614-418-183-6

طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L.
Caracas Str. - Al-Barakah Bldg.
P.O.Box: 5558-13 Shouran
Beirut - Lebanon

First Published 2002
Second Pubished 2014

تصميم الغلاف: محمد ج. إبراهيم

تقديم المترجم

مرّ أكثر عقد على صدور الطبعة الأولى لهذه الترجمة، ولم يخطر على بالي حينئذ كتابة تقديم لها، ربما لأني اعتقدت، دونما تفكير في الأمر، أن كافكا وكانيتي هما من الشهرة بحيث لا يحتاجان إلى تعريف. لكن قد تكون هناك أسباب أخرى لم تكن واضحة تمامًا، علّ أحدها هو ما أشار إليه عرض صحفي للكتاب جاء فيه أن هذه «الترجمة النصية» تبتعد عن التدخل والمقدمة والمؤخرة والتعليق»، فالنص يحضر «كما هو دون أدنى تدخل»[1]. يظهر النص الأصلي باللغة الألمانية (وبالإنكليزية التي عنها تمّت هذه الترجمة) دون تقديم بأي شكل سواء من كانيتي أو المترجم إلى الإنكليزية. بالنسبة لكانيتي قد يكون هذا أسلوبه، فهو لم يقدّم، على غرار زولا وهنري جيمز مثلًا، روايته الشهيرة «المحرقة» Auto da Fe ولا، خصوصًا، كتابة الحشد (أو التجمعات) والسلطة Crowds and Power. كذلك لم يحظ أي من الكتابين بالإنكليزية، خاصة الأخير، بتقديم من المترجم أو المترجمة. أما بالنسبة لكافكا فإن «التدخل» و«التقديم» كان

(1) يحيى الأمير، رسائل كافكا إلى فيلس، الرياض 7/ 3/ 2003.

السمة الأساسية لأعماله، تولّاها في المقام الأول صديقه والمشرف على إعداد وتحرير ونشر كتبه: ماكس برودْ Max Brod. وكما يقول كويتزي، كان لمقدّمات (Prefaces، وهنا استعمل ترجمة لها مقدّمات، لكن في معظم الأحيان المقابل الأنسب في اللغة العربية هو: تمهيد، توطئة أو تقديم وذلك لتمييزها عن Introduction) عظيم الأثر في خلق صورة كافكا كعبقري ديني في عصر الشك وككاتب قصص رمزية دينية. عقب وفاة كافكا حرّر برود ونشر رواية «القلعة» وذيّلها بـ «كلمة أخيرة» أو «مؤخرة» Afterword، تصدّى فيها لما اعتبره سوء تفسير فاحشًا لـ «المحاكمة»، كانت وفق رأي ناقد بمثابة الضربة الاستباقية لصالح آرائه الشخصية. ويشير كويتزي إلى أن هذه «الكلمة الأخيرة» أثّرت كثيرًا ليس في الترجمات فحسب ولكن أيضًا على تقبّل وقراءة أعماله في العالم الناطق بالألمانية. حسب رأي برود، الذي أجلّ كافكا لكن لم يحسن فهمه، لم يكن الكاتب الشهير إلا «مفكّر محافظ وساذج» جوابه على تحديات الحياة الحديثة يقتصر على الدعوة إلى الثوابت العتيقة[1]. يتجلّى هذا التأثير في ترجمات الزوج إدوين وويلّا موير Muir أعمال كافكا إلى الإنكليزية، لكن اللافت، كما يقول جون بانفيل، هو موافقة نقّاد شهيرين على هذه النظرة مثل جورج ستاينر والألماني إريك هيلّر Heller الذي اعتبر «القلعة»، ألليجوري دينية. لكنه يذكر أن الفنان،

(1) J. M. Coetzee, «Kafka: Translators on Trial», **New York Review of Books**, May 14, 1998, pp.14-17.

كما يقول كافكا، هو الشخص الذي لا شيء عنده ليقوله، ويرى أن معنى ذلك هو أن الفن، الفن الحقيقي، لا يحمل أي رسالة، ولا رأي فيه، ولا يسعى ليُجبر أو يُقنع بل مجرد تقديم شيء يحظى بجدارة[1]. يوافق كويتزي على خلو أعمال كافكا من التوجيه ويعتبره أقل الكتّاب أيديولوجية. أما ميلان كونديرا فيؤكد أنه «لا يوجد أي أثر في أي مكان لاهتمامات كافكا السياسية»[2]. وعدم اهتمامه بالسياسة لا يقتصر على أعماله، فالأحداث العامة نادرًا ما تظهر في مذكراته، التي يعطي في مدخل فيها الأهمية نفسها لاندلاع الحرب العالمية الثانية وذهابه للاستحمام في اليوم نفسه[3]. يدحض كونديرا محاولات تفسير روايات كافكا «كنقد للمجتمع الصناعي، والاستهلاك والاغتراب، والأخلاق البرجوازية للرأسمالية، ولكن لا يوجد شيء تقريبًا من مقومات الرأسمالية في عالم كافكا». (في هذا الكتاب نلاحظ تكرار نقد كافكا لبرجوازية فيلس في نوع الأثاث الذي تختاره وله مواقف عديدة تشجب خلفيتها ومحيطها البرجوازي: إنه «يريد أن يخلصها من خصالها البرجوازية» (ص77، 133).) وفق كونديرا، كافكا

---

(1) John Banville, **«Franz Kafka's other trial»**, The Guardian, January 14, 2011.

(2) ميلان كونديرا، «هناك في مكان ما»، فن الرواية، ترجمة أحمد عمر شاهين، القاهرة، شرقيات، 1999، ص 95 ـ 109.

(3) Zadie Smith, **«F. Kafka, Everyman»**, **New York Review of Books**, July 17, 2008, accessible online.

«يقول أشياء عن وضعنا الإنساني. . . لا يمكن أن يقولها لنا أي فكر اجتماعي أو سياسي».

تقتبس زيدي سميث من مؤلِّف رأيه عن فرادة أعمال كافكا فهي «تقع خارج الأدب: إنها ليست جزءًا من تاريخ الرواية الأوروبية. ليس له سابق ولا تابع حقيقي له». لكنها لا توافق كونديرا في رأيه بأن كافكا يكتب عن «وضعنا الإنساني»، فهو لا يكتب عن «الحالة الإنسانية the human condition» إذ إنه يعتبر أخوة الإنسان عصيّة على الفهم تمامًا كالأخوة اليهودية. وهنا نقتبس سؤال كافكا الإنكاري عن ارتباطه باليهود، فلا يجمعه شيء بهم إذ إنه لا يجد ما يجمعه مع ذاته (هنا تجدر الإشارة إلى مقارنة نفسه بفيلس في هذا الكتاب، حيث هو مجزّأ وهي كتلة صلدة (ص45 ـ 46 و 48 ـ 49). إنه، كما تقول سميث، ضد التجمع collectivity ذاته: «قومي، على اعتبار أن لي قومًا». كل ما يطمح إليه هو الوقوف في سكون في ركن قانعًا بأن «في استطاعتي التنفس». من المفارقة أن هذا الرأي له سابقة في مكان غير متوقع: الحركة الرومانسية. ففي أبيات لبايرون نظرة مماثلة للابتعاد عن التجمع البشري: شعر بأنه محكوم عليه بأن يتنفس معهم The men with whom he felt condemned to breath.

يشغل فكر كانيتي، كما هو واضح من أعماله خاصة من كتابه الحشد والسلطة، اهتمامه الفائق بالتجمعات، وعلّ هذا أحد أسباب اهتمامه ببطله كافكا. في كتابه عن الرسائل يذكر أن كافكا لم يتجنب الكلمتين Macht (قوة، سلطة) والصفة منها Machtig فهو يخشاها في كل أشكالها. (ص111) يجد مفرًّا مؤقتًا من السلطة عبر تمرين نفسه على الابتعاد أو التلاشي في صيغ مختلفة

منها اختزال اسمه إلى الحرف الأول منه: ك K. في رسائله لفيلس يصغّر اسمه بالتدريج حتى يختفي نهائيًّا في الأخير (ص114 ـ 115). هنا تجدر الإشارة إلى اهتمام كافكا بالربط بين الصغر في الحجم والضعف والعجز لكن هذا الصغر لا بدّ وأن يكون مقرونًا بكبر أو ضخامة مجاورة: «شعرت بأني صغير جدًّا بينما وقفوا حولي مثل العمالقة». (لذا إطلاق سميث الصرخة بأننا كلنا بعد كافكا حشرات، التي قد تلغي الهويات، لا يتفق مع ضرورة حضور «العمالقة» لوجود الحشرات.) يعلّق كانيتي قائلًا: «الميزة الملحوظة في هذا الخطاب هي ترجمة علاقة السلطة والملكية إلى عبارات كبر وصغر جسدي» (ص63). لكن الأهم هو أنه يزهد في سلطته الذاتية و«عن طريق الاختزال البدني ينتزع السلطة من نفسه، وبالتالي يقلل دوره فيها» (ص115). يعتذر كانيتي بأنه لم يقم إلا بتناول جزء يسير مما يمكن قوله عن السلطة والتحول عند كافكا (ص121)، فحسب رأيه من بين جميع الكتّاب كافكا هو «الخبير الأعلم بالسلطة» (ص103).

سوى السلطة هناك عوامل أخرى عديدة تجمع بين الكاتبين: تعدد الهويات دون الانتماء إلى أي منها، والابتعاد عن التجمعات بما فيها الكتّاب الآخرين. وكما أن كافكا وحيد «لكن ليس وحيدًا بدرجة كافية» (ص135) فإن كانيتي يكتب في Notes from Hampstead «إنه عندما يكون المرء وحيدًا فإنه يُكوّن مفهومًا دقيقًا عن الآخرين، ولذا يكون أقل وحدانية». وكما أن كافكا في رسائله هنا يبدي ازدراءً للكتّاب فإن كانيتي لا يشعر بالارتياح «وسط المنتمين إلى دائرتنا التي

تتخذ من الأدب حياة لها»[1]. ومثلما ينتزع كافكا السلطة من نفسه فإن كانيتي يتمنى أن «تحل هنا الهزيمة بي»[2]. كلاهما يُكرّس نفسه لـ «الورق» والكتابة: «أسلوب حياتي موجّه فقط للكتابة» (ص37). يتجاوز الانعزال عند كافكا إلى خصلة لا نجدها عند كانيتي: كراهية الذات (ص46).

يعتبر بانفيل أن علاقة كافكا بفيلس هي من الأحاجي البالغة الغموض. ويبدي حذرًا من قيام كانيتي بالربط بين المحاكمة التي ترد تفاصيلها في الرسائل وروايته «المحاكمة». فمن السهولة المخلة الاستنتاج بناءً على حياة الكاتب ما يأتي في عمله الأدبي، لكن بانفيل يستثني هذه الحالة فالصلة بين الاثنين بالغة الوضوح. لا يغفل كانيتي هذا الحذر فالعلاقة كبيرة «لدرجة أن المرء لا يشعر بوخز ضمير بخصوص إثباتها». ويجد في هذا فائدة للرواية التي «لا يتأثر كمالها بذلك. فلو كانت هناك حاجة لتعزيز أهمية الرواية فإن معرفة الرسائل ستقدم الوسيلة لفعل ذلك». مع ذلك لا تخفف التعليقات المستمدة من الرسائل من غموض الرواية (ص83). والحذر الآخر هو التطفل على حياة كافكا عبر فحص رسائله، لكن بعد قراءتها يتحقق المرء أن «قصة مثل «المسخ» هي حتى أكثر حميمية من تلك الرسائل». لكن مع هذا بالنسبة لكانيتي «مقدار الحميمية في هذه الخطابات يتجاوز الخيال» (ص47).

(1) إلياس كانيتي، أصوات مراكش، ترجمة كامل يوسف حسين، القاهرة، شرقيات، 1997، ص 129.

(2) أصوات مراكش، ص 97.

هذه الحميمية هي في الواقع أهم علامة على عظمة كافكا، فهي تمثّل حالة فريدة من تفحّص إنسانية الإنسان. هذا مفهوم مختلف لكنه متمم لمفهوم الحالة الإنسانية. يقول كانيتي: إن الإنسان يعتبر نفسه معيار كل شيء لكنه هو ذاته غير معروف. ويقدّر أيما تقدير تقديم إنسان، كافكا، «نفسه للمعرفة تقديمًا تامًّا هو في كل الظروف ضربة حظ لا مثيل لها» (ص103). لا يلجأ كانيتي للتحليل النفسي الأكاديمي، خاصة منهج فرويد الذي لم يكن على وئام مع مؤسسه وينتقد بعض آراء النقاد التي لا تخرج عن «النطاق الضيّق للتحليل النفسي» (ص110). إنه يتمكن عبر هذه الرسائل من تعرف عميق على حياة كافكا وعبر كافكا إلى معرفة شيء عن الإنسان. وكما جاء في مراجعة لهذا الكتاب عند صدوره، ترد جملة منها على الغلاف الخلفي للنسخة الإنكليزية، لا يمكن لتقرير محلل نفسي أن يقدّم لنا مساعدة أكبر في فهم كافكا مما فعله كانيتي بدراسته الرسائل.

لم تجد مؤلفات كانيتي رواجًا في العالم العربي باستثناء كتابه «أصوات مراكش» الذي ترجم أكثر من مرة. وأخيرًا تمّت ترجمة كتابه Die Fliegenpein بعنوان شذرات (في الإنكليزية العنوان: The Pain of Felice: Notes). حتى في الغرب لا تجد مسرحياته وروايته الشهيرة «المحرقة» وبحثه «الحشد والسلطة» انتشارًا واسعًا الآن، وتحظى سيرته بأجزائها الثلاثة برواج أكبر. أما كتابه عن كافكا فيكاد يكون من النوادر التي تنال كثيرًا من التقدير لكن تظل مجهولة نسبيًّا حتى في الغرب. لذا عندما قررت دار بنجوين إعادة نشره

مطلع العام الماضي في سلسلة الكلاسيكيات الحديثة Penguin Modern Classics يحتفي معلّق بهذا «العمل اللافت وغير العادي». لا يرد على الغلاف اسم المترجم ولا يحظى بتقديم سواءً من الناشر أو المترجم. تطرقت في البداية لخلوّ أعمال كانيتي من المقدمات، لكن عدم ظهور اسم المترجم على الغلاف ـ كما هو معتاد في دور النشر العربية ـ أدّى إلى إهمال اسم المترجم من الألمانية إلى الإنكليزية: كريستوفر ميدلتون Christopher Middleton وهو معروف كمترجم من الألمانية وكشاعر وأستاذ جامعي. لا يشفع لهذه الهفوة في الطبعة العربية الأولى الاعتقاد ـ بل الجزم إلى حدّ ما ـ باطلاع وربما موافقة كانيتي على الترجمة بناءً على ارتباط الأخير ببريطانيا ارتباطًا وثيقًا ومعرفته الوطيدة باللغة الإنكليزية رغم اعتماده الكتابة بالألمانية.

في كتابه Paratexts يقول جيرارد جينّيت إنه لم يتعرّض في بحثه للترجمة خاصة عندما تُراجع من قبل المؤلّف. يقوم جينّيت بمسح وتحليل عميق وممتع لتقاليد النشر في الغرب التي تجمّعت حول النص بعد أن كان في الأصل عاريًا. من هذه التقاليد كتابة تقديم Preface، لكنه لا يعتبره أبدًا ضروريًّا[1]. كان غرض «التقديم» Preface الرئيس هو جعل النص حاضرًا أمام القراء وتوجيههم نحو القراءة التي يراها كاتب التقديم الذي قد يختلف عن كاتب النص. يقتبس من زولا قوله: إنه «كان ساذجًا

(1) Gerard Genette, **Paratexts: Thresholds of Interpretation** (Cambridge: Cambridge University Press, 1997), p. 174.

في افتراضه أن روايته لا تحتاج مقدمة لأني اعتقدت أن درسها واضح بقدر كافٍ». يفصّل جينّيت تمييز هيغل (وبعده دريدا) بين **preface** والمقدمة **introduction**، فالأول يبيّن غرض المؤلف من كتابة الكتاب والصلة التي يعتقد أنها توجد مع كتب أخرى سابقة أو معاصرة في الموضوع نفسه. لكن الأخيرة هي جهد يمس صلب الكتاب ويتجاوز الظروف التاريخية. يسمي جينّيت أنواعًا من التمهيدات **prefaces** علّ أنسبها بصدد هذا الكتاب هو **the late preface** التمهيد اللاحق الذي تكون مناسبته المعروفة هي ظهور الطبعة الثانية. أخذ جينّيت بذرة فكرة كتابه عن بورغيس الذي يعتبر التمهيد مثل ردهة المبنى، منطقة بين الداخل والخارج، يقدم للعالم فرصة الدخول أو الاستدارة والمغادرة. قد لا ينطبق ما كتبته هنا في هذه التمهيد/المقدمة الكثير مما يرد هنا، وربما يكون الأحرى استعمال «ملاحظات المترجم» **Translator's Note**، مع العلم بأن Note هي أحد أنواع **preface** (التقديم) حسب جينّيت.

(1)

أخيرًا تنشر هذه الخطابات التي تحكي عن خمس سنوات من العذاب، ويظهر الآن الاسم الأول لخطيبة كافكا بوضوح على غلاف الكتاب، وكانت الإشارة الوحيدة له الرمز Fالمقابل لـ K كافكا لدرجة أنه لسنوات طويلة لم تكن لدى الناس فكرة عن اسمها وظلّوا يخمنونه من بين كل الأشياء الممكنة دون العثور على الاسم الصحيح، لأن ذلك كان من باب المستحيل - توفيت المرأة التي وجِّهت لها هذه الرسائل في 1960 وقبل وفاتها بخمس سنوات باعت (هذه المرأة) الرسائل لناشر كافكا. كيفما تجابهنا هذه الحادثة فإن «سيدة الأعمال العزيزة» كانت تبيِّن بكل تأكيد للمرة الأخيرة مقدرتها الإنجازية التي عنت كثيرًا له والتي أثارت شعورًا بالرقة لديه.

صحيح، مرَّ على وفاة كافكا أربعة وثلاثون عامًا عندما ظهرت هذه الرسائل. حتى عندئذ ولأن المرء يقدر كافكا وتعاسته فإن أول رَدَّة فعل كانت شعورًا بالارتباك والحرج. أعرف أناسًا ازداد حرجهم كلما استمروا في القراءة، وكان يساورهم الشعور بأنهم يتطفلون في مكان محظور.

أحترم هؤلاء الناس، لكني لست أحدهم. وجدت هذه الرسائل تستحوذ وتستولي على اهتمامي أكثر من أي عمل أدبي

قرأته لسنوات عديدة. إنها تنضوي تحت مذكرات، سير ذاتية، ومجموعة رسائل فريدة استمد كافكا منها مؤونته. هو نفسه، والإجلال أعلى خصائصه، لم يكن لديه حرج من قراءة متكررة لخطابات هيبِّل Hebbel، فلوبير Flaubert، كلايست Kleist. في إحدى. . . ؛ اللحظات، الأكثر إحباطًا في حياته، استفاد من معرفته أن جريلبارزر Grillparzer عندما تمكّن أخيرًا من وضع كاثي فروليخ Kathi Fröhlich في حضنه ساوره شعور باللامبالاة التامة(405)(*). في مجابهة مكاره الحياة ـ لحسن الحظ لا يلحظها أكثر الناس إلا لمامًا، لكنَّ قلة ممن تهيئوهم القوى الخفية ليكونوا شهداء على الدوام يشعرون بها ـ هناك فقط مصدر واحد للراحة: إن هذه المكاره تتناسق مع المكاره التي يمرّ بها شهود سابقون. لذا فإنه يجب الشعور بالامتنان لفيلس بوير Felice Bauer لاحتفاظها برسائل كافكا واهتمامها بها حتى لو وجدت أن لديها قوة الشكيمة أن تبيعها.

لا يضيف كثيرًا تسمية هذه الرسائل بوثيقة إلا إذا استخدمنا التسمية نفسها على شهادات الحياة (Life Testimonies) لباسكال Pascall وكيركيجورد Kierkegaard ودستيوفسكي Destoevski. أما بالنسبة لي فيمكن القول إن هذه الرسائل انسابت داخلي مثل الحياة الفعلية وإنها الآن مبهمة وأليفة لدي لدرجة تبدو وكأنها جزء من ممتلكاتي الذهبية من اللحظة التي بدأت أتعامل مع

(*) تشير الأرقام بين الأقواس في النص إلى فرانز كافكا، رسائل لفيلس
Franz Kafka: **Letters to Felice** (New York : Schocken Books. London: Martin Sceker & Warburg, 1973-1974).

الناس بشكل شامل داخل ذهني حتى أتوصل من وقت لآخر لمعرفة متجددة بهم.

تمّ أول لقاء لكافكا بفيلس بوير في الشقة التي تخصّ عائلة ماكس برود Max Brod وذلك في وقت متأخر من مساء 13 آب/أغسطس 1912. بقي عدد من الملاحظات التي أبداها في ذلك الوقت عن تلك المقابلة: أولى هذه الملاحظات يظهر في رسالته إلى ماكس برود بتاريخ 14 آب/أغسطس. يشير كافكا هنا إلى مخطوطة تأملات Meditation التي كان أحضرها لبرود الليلة السابقة. كان من المفترض أن يقوما بعمل الترتيبات النهائية للنصوص فيها. «أمس عندما كنا نرتب النصوص كنت تحت تأثير الفتاة، من المحتمل أن شيئًا فيه حماقة، بعض التصرفات المضحكة والخفية قد حدثت»[1]. يطلب من برود أن يطمئن على أن كل شيء على ما يرام ويتشكر منه. في اليوم التالي، 15 آب/أغسطس، تظهر الجملة التالية في مذكرته: «فكّرت كثيرًا في ـ يا للحرج عند كتابة الأسماء ـ F. B»[2]، ثم في 20 آب/أغسطس، بعد أسبوع من اللقاء، يحاول بموضوعية وصف انطباعه الأول، يصف مظهرها ويشعر أنه لديه بعض النفور منها عن طريق «شدة القرب منها جسديًا»، حسب وصفه.

---

(1) Franz Kafka, **Briefe**: 1902 - 1924 (New York: Schocken Books; Frankfurt am Main: S. Fischer Verlag, 1958), P. 102.

(2) Franz Kafka, **Diaries**. Vol. I: 1910 - 1913; Vol. II: 1914 - 1923 (New York: Schocken Books; 1948 - 1949; London: Martin Secker & Warburg, 1949); hereafter cited as Diaries, I, and Diaries, II. **Diaries**, I, P. 267.

وجد أنه من الطبيعي لها وهي الغريبة أن تكون ضمن هذه الصحبة. في الحال شعر بانسجام معها. «بينما كنت أتهيأ للجلوس، نظرت إليها عن كثب للمرة الأولى، وقبل استقراري في مقعدي كنت قد توصلت إلى قرار حاسم»[1]. في وسط الجملة التالية تنقطع مادة المذكرة. كل الملاحظات الأهم ربما كانت قد سجلت لولا ذلك: سيظهر فقط فيما بعد كم من الكتابة الإضافية كان يمكن أن يتمّ!

في 20 أيلول/سبتمبر يكتب لها للمرة الأولى ويذكّرها ـ خمسة أسابيع قد مرت منذ لقائهما ـ بأنه هو الشخص الذي كان في شقة «برود» يناولها عبر الطاولة بعض الصور، واحدة تلو الأخرى «والذي أخيرًا، وباليد نفسها التي تنقر المفاتيح، مسك يدك التي وثقت الوعد بأن تصحبه العام القادم إلى فلسطين»(5).

دقة تحديد هذا الوعد واليقينية التي أكدته بها هما ما أثر عليه بشدة في البداية. شعر في هذه المصافحة التزامًا وأن كلمة «خطبة» لن تتخلف كثيرًا عنها وأن السرعة لا بدّ وأن تفتنه، حيث إنه بطيء في اتخاذ القرارات، فبالنسبة له أي هدف يرجو أن يتوصل إليه يتراجع أمام آلاف الشكوك بدلًا من الاقتراب. لكن هدف الوعد هو فلسطين، وفي هذه المرحلة من حياته ليس هناك بالكاد كلمة أكثر إثارة لليمْن ـ إنها أرض الميعاد.

يصبح الوضع حتى أكثر أهمية عندما يفكّر المرء أي صور هي تلك التي يناولها عبر المنضدة. إنها صور رحلة إلى «تاليا»

(1) **Diaries**, pp. 268 - 69.

Thalia[1]: في أوائل تموز/يوليو ـ خمسة أو ستة أسابيع قبل ذلك، كان كافكا مع ماكس في ڤايمار Veimar حيث أصابته أحداث لافتة في بيت غوته Goethe. داخل بيت غوته نفسه لاحظ ابنة القيّم على البيت، وهي فتاة جميلة. كان قد تمكن من التحدّث إليها، وقد تمّ تقديمه إلى أبويها وتمّ له تصويرها في الحديقة وعند مدخل البيت، وتمّت دعوته إلى تكرار الزيارة، وهذا سيمكنه من التردد على البيت بحرية وليس فقط خلال ساعات الزيارة الرسمية. كذلك كان ـ بالمصادفة ـ يلاقيها بكثرة في أزقة البلدة وكان يراقبها في قلق وهي بمصاحبة الفتيان. رتّب موعدًا معها لكنها لم تفِ به وتبيّن له عاجلًا أنها تفضل هؤلاء الطلاب. كل شيء حدث خلال فترة عدة أيام؛ زادت الملاقاة حدة أنها كانت جزءًا من حركة السفر التي تجعل كل شيء يحدث بوتيرة أسرع. فورًا بعد ذلك ذهب كافكا وحده دون «برود» إلى مصحة نفسية في يونجبورن Jungborn في جبال هرز Harz. هناك مذكرات غنية بطريقة بديعة لهذه الأسابيع، لا علاقة لها باهتماماته بـ «تاليا» والاحترام المهيب لمنازل الشعراء العظام. لكنه أرسل بطاقات بريدية إلى الفتاة الجميلة في ڤايمار وتلقى عليها ردودًا. ينسخ إحدى تلك الإجابات في خطابات إلى «برود» ويضيف الملاحظة التالية ـ وهي ملاحظة توحي بالأمل ـ، آخذًا في الاعتبار وضعه النفسي: «حتى إذا لم أثر استياءها، مع ذلك تجدني شخصًا مضجرًا لأقصى حدّ.

---

(1) على الأرجح سميت كذلك تيمنًا باسم إلهة الكوميديا، حيث إن الرحلة كانت موجّهة في معظمها لزيارة المشاهد الثقافية.

لكن لماذا تكتب، تمامًا كما أردت. هل من الممكن الاستيلاء على فتاة بالكتابة؟»[1].

هكذا منحه لقاء بيت غوته الجسارة عبر المنضدة، يناول «فيلس» الصور التي التقطها خلال تلك الرحلة. ذكريات محاولته في التواصل معها ونشاطاته في ذلك الحين، أدّت على الأقل إلى جعل الصور التي يمكنه الآن إبرازها تتحول إلى الفتاة التي تجلس أمامه: «فيلس».

كذلك تعرّف كافكا في هذه الرحلة التي بدأت في ليبزج Leipsig على إرنست روهلت Ernest Rowohlt الذي وافق على نشر كتابه الأول. لقد انشغل كافكا كثيرًا بتجميع القطع النثرية القصيرة من يومياته من أجل الكتاب ـ تأملات. كان مترددًا؛ لم تبد له القطع على مستوى جيد. ألحّ عليه «برود» وواصل الإلحاح؛ أخيرًا أخذ الكتاب الشكل المناسب، وفي المساء 13 آب/أغسطس أحضر كافكا البروفات النهائية معه بنية مناقشة ترتيبها مع «برود»، كما تمّ الإشارة إليه سابقًا.

هكذا كان في ذلك المساء مجهّزًا بكل ما يمكن أن يعينه على تحمسه: مسودة كتابه الأول، وصور رحلة تاليا ومن ضمنها صور الفتاة التي استجابت له بلطف، وفي جيبه نسخة من المجلة فلسطين Palastina. شعر كافكا بالارتياح بين أسرة «برود» التي تمّ «اللقاء» في منزلها. كما يذكر كافكا، كان يحاول إطالة الأمسيات التي قضاها معهم وعندما أرادوا الاستعداد للنوم كان لا بدّ من التخلص منه رغم أن ذلك تمّ «بمودة». إنها العائلة التي

(1) Briefe, P. 97.

لجأ إليها هربًا من أسرته. هنا الأدب لم يكن محرّمًا. كان والدا «برود» فخورين بابنهما وبالسمعة التي كوّنها ككاتب وأعطيا الاعتبار الملائم لأصدقائه.

إنه الوقت نفسه الذي اكتسبت خلاله كتابة المذكرات لدى كافكا دقة وأفقًا جديدين. تشهد على ذلك يوميات «يونجبورن» التي هي أفضل يوميات الرحلات لكافكا. إنها هي التي تمتُّ بأقوى صلة بعمله المميز الذي هو في هذه الحالة أميركا Amerika.

تظهر دقة تذكر للتفاصيل المحددة في الخطاب السادس المدهش إلى «فيلس»، المؤرخ في 27 تشرين الأول/أكتوبر الذي يصف فيه لقاءها بأدق العبارات. مرّ خمسة وسبعون يومًا منذ مساء 15 آب/أغسطس. بعض تفاصيل تلك الأمسية التي سجلتها ذاكرته لها أهمية أكثر من سواها. تسجل بعض هذه التفاصيل ما يمكن أن يوصف بالضراوة ليبيّن لها أنه لم يفته أي تفصيل لشخصيتها، لا شيء يغيب عن ذاكرته. يبيّن إلى أي مدى هو كاتب من نمط فلوبير الذي لم يكن بالنسبة له أي شيء تافهًا ما دام ملائمًا. بشيء من الفخر يقدّم الصورة الكاملة مانحًا تكريمًا ذا شقين: لها لأنها كانت تستحق أن تستوعب بكل التفاصيل، لكن بعض الاعتبار يوجهه إلى ذاته لعينه التي ترى كل شيء.

من ناحية أخرى يلاحظ أن تفصيلًا أو آخر له أهمية بالنسبة له لأنه يتواءم مع لمحات مهمة في طبيعته هو لأنه يلغي بعض قصوره أو لأنه يدهشه ويجعله، من خلال الإعجاب، أقرب إليها جسديًا. هذه هي التفاصيل التي تناقش هنا، لأنها هي التي كوّنت صورته لها خلال الشهور السبعة التالية. هذه الصورة تستمر حتى

يراها مرة أخرى وتتكوّن تقريبًا نصف مراسلاتهما الكثيرة من خطابات كتبت خلال هذه الشهور السبعة.

لاحظتْ باهتمام شديد صور «تاليا» وأبعدتْ نظرها عنها فقط عندما كان هناك شرح أو عندما ناولها صورة أخرى؛ أهملت الطعام بسبب الصور، وعندما أشار ماكس Max إلى ذلك أجابت بأنه لا شيء أكثر إثارة للاشمئزاز بالنسبة لها من أُناس لا يتوقفون عن الأكل. (ستناقش فيما بعد تحفظات كافكا في أمور الطعام). ذكرتْ كيف أنها لمَّا كانت صبيّة تعرَّضت للضرب من إخوانها وأبناء عمومتها وأنها لم تملك أية مقاومة أمام ذلك الضرب. مسحتْ يدها على ذراعها اليسرى التي حسب قولها كانت طافحة بالقروح لكن لم تشفق على نفسها، ولم يخطر بباله كيف كان بالإمكان لأي شخص أن يتجرأ على ضربها، حتى في تلك الأيام التي كانت فيها بنتًا صغيرة. تخطر في باله هشاشته خلال طفولته، لكن بالمقابل لم يؤدِّ ذلك إلى الشعور بالعطف على الذات. ينظر إلى ذراعها ويتعجب من قوتها الحالية ـ لا أثر لأي ضعف من الطفولة المبكرة.

بينما كانت تفحص أو تقرأ شيئًا ما ذكرت بطريقة عفوية أنها قد درست العبرية. اندهش لذلك، لكن كان يود أنها لم تقل تلك الملاحظة بتلك الطريقة المبالغ في عفويتها؛ لذا كان سعيدًا في الخفاء عندما لم تتمكن فيما بعد من ترجمة Tel Aviv. لكن تبيّن أيضًا أنها كانت صهيونية، وناسبه ذلك إلى حدّ كبير.

ذكرت بأنها استمتعت بنسخ المسودات وطلبت منه أن يرسل لها بعضًا منها. تعجب كافكا من ذلك لدرجة أنه بدأ يضرب بقوة على الطاولة.

كانت في طريقها إلى حفل زفاف في بودابست. أشارت السيدة «برود» إلى رداء من القطن كانت قد شاهدته في غرفة «فيلس» في الفندق. عندئذ وقف الجميع للذهاب من غرفة الطعام إلى غرفة الموسيقى. «عندما وقفت ظهر أنك تلبسين صندلًا لأنَّ حذاءك كان يجب أن يجف. كان الطقس سيئًا طيلة اليوم. ضايقك ذلك الصندل بعض الشيء وبينما كنت تعبرين الغرفة الوسطى المظلمة أخبرتني أنك كنت متعودة على صنادل ذات كعب. مثل هذه الصنادل كانت جديدة بالنسبة لي»(15). أزعجها صندل المرأة الأكبر سنًّا، وَصْفُها لنوع الصنادل التي تناسبها في نهاية مرورهما عبر الغرفة الوسطى المظلمة، جعله حتى أكثر قربًا منها جسديًّا من تأمل ذراعها التي خلت من أية قروح الآن.

فيما بعد عندما كان الكل في طريقهم إلى المغادرة حدث شيء آخر: «لم أصدق السرعة التي انطلقتِ بها خارجة من الغرفة، وعدت لابسة حذاءك»(16). هنا سرعة التحول أثرت عليه. نوع تحوله على عكس ذلك، يكاد يكون دائمًا عملية تتميز بالبطء الشديد وعليه التحقق منه في كل خطوة قبل الوثوق من ذلك التغيير. يصنع تحولاته بدقة وشمول تشبه البناء في إشادة المنزل. ها هي أمامه تقف فجأة، امرأة لابسة حذاءها، لكن مجرد لحظات قبل ذلك اندفعت خارجة من الغرفة بصندل.

ذكرَ سابقًا، ولو عفويًّا، أنه صادف أن يكون معه نسخة من مجلة Palastina. نوقشت رحلة فلسطين وكان عندئذ أن مدت يدها لتصافحه، «أو بالأحرى، بسبب الإيحاء، انتزعتها منك»(16)، وعندئذ اصطحب والد «برود» كافكا وفيلس إلى فندقهما. في الشارع أصابته واحدة من «الغشيات» الخفيفة وأساء

التصرف. علم أنها كانت قد فقدت مظلتها في القطار، وأضاف هذا التفصيل الهيّن بعدًا جديدًا على تصوره لها. كان عليها أن تغادر مبكرًا في اليوم التالي: «كونك لم تحزمي أمتعتك بعد ومع ذلك تنوين القراءة قبل النوم سبب لي بعض القلق. استمريتِ الليلة السابقة في القراءة حتى الرابعة صباحًا»(17). رغم قلقه حول سفرها المبكر لا بدّ وأن تكون هذه الخصلة قد زادت من شعوره بالقرب منها: هو نفسه يكتب في الليل.

عمومًا، يجد المرء نفسه يرى فيلس كشخصية محددة تتجاوب مع الناس بسرعة وانفتاح وتصرح دونما تردد برأيها في أي موضوع.

تطورت المراسلات بسرعة. يوميًا تصل رسائل من كافكا وتجيب عليها فيلس على وجه السرعة (لم تبق إلا خطاباته فقط). تُظهر رسائله ملامح معينة تثير الدهشة تمامًا: لقارئ متفتح الذهن، يَبْرز بوضوح مقدار الشكوى من قبل كافكا عن أحواله الجسدية. تبدأ هذه الشكاوى مبكرًا في الخطاب الثاني وهي هنا مبهمة إلى حدّ ما: «آه، هذه الأمزجة التي تلمّ بي، أيتها السيدة بوير Bauer! يسقط عليّ وابل من العصبية باستمرار. ما أريده في لحظة أمقته في اللحظة التالية. عندما أكون بلغت أعلى السلم لا أدري الحالة التي سأكون فيها عندما أدخل الشقة. يجب عليّ أن أكدّس الشكوك في داخلي قبل أن تتحول إلى يقين أو رسالة... ذاكرتي سيئة جدًا... ترددي.... أذكر مرة أني فعلًا تركت السرير لأكتب ما خطر ببالي إليك؛ لكن عدت عاجلًا إلى السرير لأني ـ وهذا ضعفي الثاني ـ ألوم نفسي على سخافة قلقي»(6-7).

يستطيع المرء ملاحظة أن ما يصفه هنا هو عدم قدرته على الحسم، وبهذا يبدأ تردّده. لكن حالًا يرتبط كل شيء بأحواله الجسدية.

يبدأ رسالته الخامسة بإشارة إلى عجزه عن النوم وينهيها بسرد للمجريات التي تمنعه من الكتابة في المكتب، حيث يخط الرسالة. من هنا فصاعدًا، يكاد لا يكون هناك أي خطاب دون شكاوى. في البداية يطغى اهتمامه بفيلس على تلك الشكاوى. يسأل ألف سؤال، يريد معرفة كل شيء عنها، يتمنى أن يكون في وضع يتخيّل فيه بالضبط ما يجري في المكتب حيث تعمل وكذلك في منزلها. لكن هذا يبدو عامًّا لدرجة الغموض ـ في الواقع أسئلته كانت أكثر دقة. يسألها أن تجيبه متى تصل مكتبها، ماذا تناولت من إفطار، أي المناظر خارج نافذة مكتبها، وعن العمل الذي تقوم به. ما هي أسماء أصدقائها، رجالًا ونساءً، من المسؤول عن إتلاف صحتها بالحلويات، هذه هي فقط الأسئلة الأولى، أسئلة أخرى لا حصر لها ستتبع. يرجو أن تكون صحيحة وآمنة، يريد أن يعرف عن الغرفة التي تسكنها وتعمل فيها وكيف تنظم وقتها. لا يدع أي تناقض يمرّ دونما ملاحظة ويطلب تفسيرًا سريعًا. يطلب من «فيلس» دقة تعادل تلك التي يصف فيها حالاته الذهنية.

سيكون هناك المزيد من هذه الرسائل فيما بعد؛ يجب على المرء محاولة فهمها وإلا فإنه لن يستطيع إدراك شيء. في الوقت الراهن علينا تذكّر نوايا كافكا الخفية خلال الفترة الأولى من هذه المراسلات؛ كان ينشئ علاقة، قناة اتصال بين كفايتها وصحتها، وتردده وضعفه. يرغب عبر المسافة بين براغ وبرلين في التمسك بشدة بعنفوانها. الكلمات الواهنة التي يُسْمَح له فيها بمخاطبتها

ترتد إليه أقوى عشر مرات. عكس تأكيداته عن ضعفه فإنه يحارب بعناد، بل بصلابة من أجل الحصول على ردّها. فقط في هذا المجال هي أكثر منه نزقًا، ليس لديها الهوس نفسه، لكن ينجح في فرض هوسه عليها: حالًا هي أيضًا تكتب له رسالة كل يوم وأحيانًا رسالتين.

بالتأكيد الكفاح من أجل الحصول على هذه القوة التي تجلبها رسائلها المنتظمة له معنى. إنه ليس تبادلًا عقيمًا للرسائل دونما غرض لذاته، وليس فقط لإرضاء الذات؛ إنه يعينه في كتابته. ليلتان بعد رسالته الأولى يكتب الحكم (The Judgment) في جلسة واحدة، خلال ليلة واحدة، في عشر ساعات. يمكن القول إنه بهذه القصة توطّدت ثقته بنفسه ككاتب، يقرؤها على أصدقائه، فلا مجال للشك في أصالة القصة، لذا لم يرفضها أبدًا كما فعل بالنسبة لكتابات أخرى كثيرة. خلال الأسبوع التالي يكتب السكتة (The Stroke) وفي مدة الشهرين التاليين يكتب خمسة فصول إضافية لـ «أميركا»، التي أصبحت في ستة فصول. خلال توقف أسبوعين عن كتابة الرواية، يكتب المسخ (The Metamorphosis).

فترة رائعة، ليس فقط من وجهة نظرنا المتأخرة، فلا يمكن مقارنة إلا فترات أخرى بسيطة بهذه الفترة. وللحكم بناء على النتائج ـ وكيف سوى ذلك يتسنى الحكم على حياة كاتب ـ كان موقف كافكا خلال فترة الثلاثة شهور من مراسلة فيلس هو الأكثر ملاءمة له. كان يشعر بما توجّب أن يشعر به: مصدر أمان في مكان ما بعيد، مصدر قوة يبعد بقدر كاف لجعل حساسيته شفافة، لا يزعجها شدة القرب ـ امرأة موجودة دائمًا له هناك،

امرأة لم تنتظر منه أكثر من كلماته، نوع من «محوِّل» فطن إلى عطله التقني وبرع في إصلاحه بسرعة بقدر يمكِّنه من تقويمها بسرعة بكتابة رسالة. لم تتعرض هذه المرأة التي خدمت أغراضه إلى مؤثرات أسرته التي عانى كافكا كثيرًا بوجوده كأحد أفرادها. كان لا بدّ وأن يبقيها بعيدًا عنهم. كان يجب أن تأخذ كل شيء يقوله عن نفسه مأخذ الجد. معدودة الكلمات في حديثه لذا في كتاباته كان عليه أن يسهب في الحديث عن نفسه لها، يسرد شكاواه مهما كانت، يجب أن لا يحتفظ بشيء لأن ذلك ربما أحبطه في عملية الكتابة، يجب أن يذكر لها بالتفصيل الأهمية والاستمرارية والتردد في هذه الكتابة. تنقطع يومياته في هذه الفترة - الرسائل لفيلس بمثابة مذكرات مفصلة مع ميزة أنه في الواقع يكتب مادة يوميًا وأنه هنا يمكنه تكرار نفسه بشكل متواتر ولذا يذعن لإحدى الضرورات المهمة في حياته. لا تتميز كتاباته لها بالفرادة والثبات: يمكنه التعديل - تأكيدًا أو إنكارًا - في خطابات تالية. وفي رسائله المتتابعة يمكن تقبل حتى سرعة الإثارة التي يلوم نفسه عليها في مواد يومياته المختلفة وذلك لذهنيته المتحكمة لأنه يعتبرها فوضوية. لكن بالتأكيد الميزة الأساسية، كما تمّ ذكره، أنه بالإمكان توفر التكرار والابتهالات الحقيقية. لو كان هناك شخص عليم بضرورة وعمل التكرار والترديد فهو كافكا. من بين الخصائص الواضحة له ككاتب هذه هي الميزة التي أدّت إلى التفسير «الديني» الخاطئ لعمله.

كانت فاتحة المراسلات مهمة لكافكا لدرجة أن آثارها عليه استمرت ثلاثة أشهر؛ كذلك فهي أدّت إلى أعمال بفرادة «المسخ». لماذا، إذن، تتوقف كتاباته فجأة في كانون الثاني/

يناير 1913؟ لا تجيب عن هذا السؤال بدرجة كافية المقولات عن وجود فترات إنتاج ونضوب لدى الكاتب. للإنتاجية دائمًا محدداتها وعلى المرء أن يبذل جهدًا كي يعرف أسباب توقف الإنتاج.

رغم أن رسائل الفترة الأولى لا يمكن اعتبارها رسائل حب بالمعنى المعتاد إلا أنه لا يمكن التغاضي عن أنها تستلزم قدرًا يمت بصلة إلى الحب بشكل خاص. بالنسبة لكافكا من المهم أن تتوقع شيئًا منه. في اللقاء الأول الذي استمد منه السند لمدة طويلة كانت معه مخطوطة كتابه الأول، تعرّفت عليه فيلس ككاتب وليس فقط كصديق لكاتب ألمَّت إلى درجة ما بعمله؛ وادعاؤه بتلقي رسائل منها يعتمد على الافتراض أنها تعتبره كذلك. القصة الأولى التي أرضته ـ «الحكم» ـ هي قصتها؛ هو مدين لها بها وقد أهداها لها. بالطبع ليس هو متأكدًا من آرائها الأدبية وفي رسائله يحاول ممارسة بعض التأثير عليها. يطلب منها قائمة بالكتب التي لديها، لكن لم يتلق تلك القائمة.

* * *

كانت فيلس امرأة بسيطة؛ يبرز ذلك بوضوح في ملاحظاتها التي يقتبسها كافكا في رسائله. كان يمكن للحوار ـ إذا كان يمكن لكلمة واضحة مثل حوار أن تعطى لشيء بهذا التعقيد والسرية ـ الذي أقامه مع نفسه عبرها أن يستمر طويلًا. لكن أصابته حيرة من رغبتها العارمة للثقافة: كانت تقرأ لكتَّاب آخرين وذكرتهم في رسائلها. جلب إلى حيّز الوجود الآن فقط مقدارًا يسيرًا من العالم الهائل الذي شعر به يضطرم في رأسه؛ وككاتب كان يرغب أن تكون فيلس له وحده.

في 11 كانون الأول/ ديسمبر يرسل لها أول كتبه؛ للتو تمّ نشر «تأملات». يكتب: «رجاءً كوني رفيقة بكتابي المسكين! يتكون من الصفحات القليلة التي رأيتني أصنفها في أمسيتنا. أتساءل أن تلاحظي كم تتفاوت القطع المختلفة في الزمن. مثلًا إحداها مرّت عليها بالتأكيد 8 ـ 10 سنوات. أطلعي الكتاب لأقل عدد ممكن من الناس حتى يتم تجنب تغيير رأيك فيّ»(100).

في 13 كانون الأول/ ديسمبر يذكر كتابه مرة أخرى: «كم أنا سعيد للتفكير أن كتابي ـ بالرغم مما أجده فيه من خطأ... هو الآن في حوزتك»(104).

في 23 كانون الأول/ ديسمبر توجد الجملة الوحيدة التالية: «آه، لو فقط علمت الآنسة لندنز Frl. Lindnes [زميلة فيلس] كم هو صعب كتابة القدر القليل الذي أكتب»(120). هذه إشارة إلى قصر «تأملات» ولا يمكن تفسيرها إلا كرد على ملاحظة مراوغة وردت في إحدى رسائل فيلس.

هذا كل شيء حتى انفجاره العظيم من الغيرة في 28 كانون الأول/ ديسمبر، سبعة عشر يومًا بعد إرسال الكتاب لها: تملأ خطابات هذه الفترة التي تتناول مواضيع مختلفة ثلاثين صفحة طباعة حروفها متلاصقة، ولم يتم، كما قد لوحظ، الاحتفاظ إلا برسائله. من الواضح أن فيلس لم تعط، حتى ولو رأيًا واحدًا جادًا بخصوص «تأملات». هدف ثوراته الآن هو هربرت يولينبرج Herbert Eulenberg الذي تتحمس له فيلس: «أنا غيور من كل الناس في خطابك، الذين تذكرينهم والذين لا تشيرين إليهم، رجالًا ونساءً، رجال أعمال وكتّابًا (وفوق كل شيء ودونما حاجة إلى ذكر ذلك، الكتّاب)... أنا غيور من ورفل Werfel،

سوفوكليس Sophocles، ريكاردا هوخ Ricarda Huch، لاجرلوف Lagerlof، ياكوبسون Jacobsen. وبطفولية ترتاح غيرتي لأنك تَدْعين Eulenberg هيرمان Hermann بدل هيربرت Herbert، بينما بدون شك يرسخ في ذهنك فرانز. (تحبين السلويت Silhouettes؟ هل تجدينها عميقة وواضحة؟) السلويت الوحيدة التي أعرفها بكاملها هي «Mozart»، قدَّم يولينبرج Eulenberg قراءة لها هنا، لكن لم أستطع تقبلها، النثر اللاهث القذر.. لكن بالطبع ليس هناك شك وأنا في حالتي هذه أني أظلمه ظلمًا شديدًا. لكن يجب ألا تقرئي السلويت، وأرى الآن أنك ما زلت «متحمسة جدًّا» له. (ليسمع الكل: فيلس متحمسة له، متحمسة بالتأكيد، وأنا هنا أثور ضده في منتصف الليل.) لكن هناك آخرون في رسالتك أيضًا؛ أود أن أَخوض معركة معهم كلهم، جمعهم الكامل، ليس لأني أهدف إلى إيذائهم، لكن لأقصيهم عنك، وأن أُبْعِدَك عنهم، حتى أقرأ فقط رسائل تقصر اهتماماتها عليك وعلى أسرتك،... وبالطبع، بالطبع عليّ أنا»(129).

في اليوم التالي يتلقى رسالة غير متوقعة منها لأنه كان يوم أحد ويشكرها: «عزيزتي، مرة أخرى هذا هو النوع من الخطابات الذي ينتشي له المرء بسرور ساكن. إنه غير محشو بكل أولئك الأصدقاء والكتَّاب»(131).

في تلك الليلة نفسها يجد تفسيرًا لغيرة اليوم السابق: «بالمناسبة أعرف الآن بدقة أكثر لماذا سبّب لي خطاب الأمس غيرة: لا تحبين كتابي كمًا أنك لم تحبي صورتي. في الحقيقة هذا لا يهم لأن المكتوب هناك عفا عليه الزمن.... أشعر

بحضورك بشكل حاد في كل شيء آخر لدرجة أني مستعد تمامًا... أن أكون أول من يقوم برفس الكتاب الصغير بعيدًا بقدمي... لكن لماذا لا تقولين لي، في كلمتين، إنك لا تحبينه! من الممكن تمامًا تقدير عدم محبتك للكتاب. ... لا أحد يمكنه معرفة الهدف منه. هذا كان ولا يزال واضحًا بالنسبة لي؛ تسيطر على ذهني كذلك فكرة أن أشياء مهمة أهدرت تمامًا: المتاعب التي تحمّلها الناشر المبذر والأموال التي خسرها. ... لكن لم تذكري شيئًا، أو بالأحرى أعلنت عن قول شيء ولكنك لم تقوليه»(132).

في نهاية كانون الثاني/يناير يعود لكتاب «تأملات»: بخصوصه كتب إليه المؤلف الڤينّي (من ڤيينا) أوتّو شتوسل Otto Stossel الذي يقدره كثيرًا ويكن له شخصيًّا المحبة: «يكتب هو عن كتابي أيضًا، لكن بجهل تام جعلني أعتقد للحظة أن الكتاب لا بدّ وأن يكون في الواقع متميزًا، لأن الكتاب يخلق نوعًا من سوء الفهم يستحيل توقعه بالنسبة للكتب حتى مع شخص في فطنة وخبرة شتوسل الأدبية»(177). ينسخ لها كامل الجزء المتعلق بالموضوع وهو طويل نسبيًّا. يحتوي على ملاحظات مدهشة: «مليء بالظرف المناسب، الموجه إلى الداخل إن صحت العبارة، ويشبه الطريقة التي يحتفي فيها المرء بيوم مشمس طليق يضمر آمالًا سعيدة وشعورًا دفينًا بالقوة وذلك بعد نوم ليلي عميق وحمّام منعش ولباس كتّاني نظيف. إنه ظرف ينجم عن حالة نفسية سليمة»(178). غلطة شنيعة، كل كلمة فيها خطأ؛ يرتعب كافكا من عبارة «ظرف الحالة النفسية السليمة»، ويُعيد ذكرها فيما بعد. لكنه يضيف أيضًا: «بالمصادفة يتناسب الخطاب مع المراجعة

التي نشرت اليوم والتي كانت محابية بشكل طاغٍ لكنها لا تجد في الكتاب إلا الأسى»(178).

من الواضح أنه لم ينس إهمالها للكتاب: كثافة سرده لآراء شتوسل - وهذا غريب على كافكا - تخفي جروحه. يرغب تعليم فيلس درسًا - سهلت الأمور بالنسبة لها أكثر من اللازم - وهو يوضح مدى تألمه لفشلها في التجاوب.

يأتي الثوران الأعنف ضد كاتب آخر خلال النصف الأول من شباط/فبراير. كانت فيلس قد سألته عن إلسه لاسكر - شولر - Else Lasker Schüler ويرد: «لا أطيق قصائدها؛ خواؤها يسبب لي الضجر، وإسهابها المصطنع يثير فيَّ الكراهية. للأسباب نفسها أجد نثرها سببًا للملل؛ إنه عمل ذهنٍ يفقد القدرة على التمييز، يصطرع داخل رأس قاطن المدينة المجهد... نعم، وضعها سيىء؛ أظن أن زوجها الثاني تركها؛ إنهم يجمعون لها المعونة هنا أيضًا؛ يجب إعطاء خمس كرونات دونما الشعور بأي تعاطف معها. لا أدري لماذا، لكن أتخيلها دائمًا فقط كسكّيرة، تجرُّ نفسها عبر المقاهي في الليل... اغْرُبي لاسكر - شولر! اقْربي أيتها العزيزة! لا يمكن السماح لأحد أن يكون بيننا أو حولنا»(191).

تخطط فيلس للذهاب للمسرح لمشاهدة بروفيسور برناردي Professor Bernhardi لمؤلفها آرثر شنيتسلر Arthur Schnitzler ويكتب كافكا: «لكن أن تذهبي إلى هذه المسرحية، يا عزيزتي، فإنك تجرينني بحبل لا فكاك منه وهناك خطورة أن ننصاع لذلك النوع من الأدب السيئ الذي

يمثّله بالنسبة لي الجزء الأكبر من (أعمال) شنيتسلر؛(193).
لذا يذهب هو الليلة ذاتها لمشاهدة هيدالا Hidalla التي كان يمثل فيها فرانك ودكند Frank Wedekind وزوجته: «ذلك أني لا أحب أبدًا شنيتسلر وقَليلًا ما أحترمه؛ لا شك أنه يملك مقدرات في أشياء معينة لكن بالنسبة لي مسرحياته الكبرى ونثره المشهور يكتبه بكميات هائلة تمامًا من الهُراء المثير للاشمئزاز. لا يمكن أن أقسو بدرجة كافية عليه... بمجرد النظر إلى صورته ـ ذلك الحلم الزائف والعاطفية المفرطة التي لن أقرب منها ولو بأطراف أصابعي ـ أستطيع أن أرى كيف أنه انحدر بهذا الشكل من أعماله الأولى التي فيها بعض التميّز (أناتول Anatol، الجولة La Ronde، الضابط جستل Lientenant Guistle) ـ لن أذكر حتى اسم «ودكند» في الخطاب نفسه.

«كفى، كفى، لأتخلص على وجه السرعة من شنيتسلر ـ Schnitzler الذي يحاول أن يفرق بيننا، كما فعلت ذات يوم لاسكر ـ شولر Lasker-Schüler» (193).

تتميز غيرته عن الكتّاب الآخرين في حدود اهتمام فيلس بهم وذلك بالقدر نفسه الذي تكون عليه الغيرة عادة؛ يُدْهش المرء ويصيبه الارتياح لاكتشاف كون كافكا بشكل طبيعي وتام هجومي ضد الآخرين. خلال هذه الرسائل العديدة يمكن للمرء الاستماع إلى الصوت المعروف لكافكا المشهور أكثر بهجوميته تجاه نفسه. لكن لهجة هذه الحملات ضد الكتَّاب الآخرين الذين هم فعلًا يعيشون في عالم منفصل عن عالمه تمامًا، ونوعية الهجمات القاتلة وحماقتها كلها أغراض للتغيّر في علاقته مع

فيلس. يتخذ هذا التغير انقلابًا مأساويًا لفشلها في عدم تقدير كتاباته. يحتاج سندها كدعم مستمر لعمله؛ لكنها لا تستطيع إدراك الشخص الذي تسنده من خلال رسائلها.

وَضْعُه في هذا المجال أسوأ بسبب طبيعة كتابه الأول. لتفهّمه وجدّيته لا يبالغ في قدر «تأملات». إنه كتاب يعلن كثيرًا عن مواضيعه التي يهتم بها. لكنه خليط لا يزال إلى حدّ ما مزاجيًا ومتفنّنًا؛ تتضح فيه التأثيرات الخارجية (روبرت ولسر Robert Walser)، ويفتقد بشكل خاص الوحدة والإثارة. بالنسبة له تكمن أهميته في أنه كان يحمل المخطوطة عندما رأى فيلس أول مرة.

لكن ستة أسابيع بعد تلك الأمسية ومباشرة بعد خطابه الأول لفيلس عاد إلى طبيعته تمامًا في «الحكم» The Judgement و«الوقّاد» The Stoker . وربما أكثر أهمية هنا هو أنه كان فيما يبدو على علم بقيمة هذين النصين. كانت المراسلات مع فيلس قد بدأت. وليلة عقب ليلة كان يكتب «أشياء» وبعد ثمانية أسابيع يتوصل إلى قمة تفوقه في «المسخ». كتب شيئًا لن يتمكن أبدًا من تجاوزه لأنه لا شيء يمكن أن يتفوق على «المسخ»، أحد أعمال الخيال الشعري القليلة التي كتبت في هذا القرن والتي تتميز بالعظمة والكمال.

بعد أربعة أيام من الانتهاء من «المسخ» يتم نشر «تأملات». يرسل هذا الكتاب الأول لفيلس وينتظر سبعة عشر يومًا ليسمع منها كلمة عنه. يتمّ تبادل الرسائل عدة مرات في اليوم؛ ينتظر دونما نتيجة وكان قد كتب «المسخ» وقسمًا كبيرًا من «أميركا». في ذلك كفاية لاستدرار الدمع من الصخر: يدرِكُ الآن أن السند الذي قدمته خطاباتها والذي بدونه لم يستطع الكتابة كان يُمنح

على نحو أعمى. شكوكه المستمرة أصبحت طاغية، لم يعد واثقًا من مطالبته بالخطابات التي انتزعها منها خلال الأوقات الطيبة. و«كتابته» التي كانت «حياته» بدأت تتعثر.

وكنتيجة غير مباشرة لهذه الكارثة، لكن في عنفها كانت لافتة، كانت غيرته من الكتّاب الآخرين. جرحته فيلس جرحًا عميقًا بأسماء المؤلفين الذين كانت تقرأ لهم، تلك الأسماء التي تكررت في رسائلها. في نظرها كل هؤلاء كانوا شعراء وكتابًا. لكن ماذا كان هو بالنسبة لها؟

أتت مباركتها التي أغدقتها عليه إلى نهايتها. وبتشبثه الكبير، المقابل المدهش لهشاشته، تَمسَّك بشدة بشكل العلاقة القائمة ومن ثم نظر بحسرة إلى جنة الثلاثة أشهر الماضية والتي لا يمكن أن تعود أبدًا. التوازن الذي منحته له تمّ نسفه.

بالتأكيد كان هناك دور لأحداث أخرى في هذا الاضطراب خلال تلك الأيام. على سبيل المثال، كانت هناك خطبة ماكس برود أعز أصدقائه الذي حثَّه وحمَّسه أكثر من أي شخص آخر على الكتابة. خشي كافكا التغيير في هذه العلاقة الذي كان محتومًا فقط بحضور الزوجة، كما يبدو. كذلك كان خلال هذه الفترة يجري التحضير لزفاف أخته ڤالي Valli؛ كل ما يتصل بذلك جرّبه مباشرة في منزل والديه الذي هو منزله أيضًا. يحزنه أن يفكّر في رحيل أخته، يشعر أن الأسرة تتفتت، لكنه مع ذلك يكره العائلة. لكنه وطّن نفسه على هذه الكراهية وهو في حاجة إليها. الأحداث غير المعتادة الكثيرة التي ملأت شهرًا كاملًا قبل الزفاف أزعجته. يتعجب لماذا يتألم بهذه الطريقة الغريبة من هذه الزيجات كما لو أن بليّة مفاجئة ومباشرة كانت تنزل به بينما

المشاركون الرئيسون أنفسهم على غير المتوقع سعيدون. كراهيته للزواج كأسلوب حياة، هذا الزواج الذي تطلّب هذه الترتيبات الكثيرة، أصبحت أكثر وضوحًا عن ذي قبل.

يطلق العنان لردّ الفعل المعاكس هذا كلّما توقع الناس منه طريقة الحياة هذه: يبدأ بالإحساس بأن فيلس خطر عليه؛ لياليه الوحيدة في تهديد ويدعها تدرك ذلك.

لكن قبل مناقشة محاولاته في التصدي لهذا الخطر يجب أن نكون أكثر دقة بخصوص الطريقة التي شعر فيها بالتهديد.

* * *

«أسلوب حياتي مُوَجَّه فقط للكتابة... الوقت ضيق، مقدرتي محدودة، المكتب مرعب، الشقة مزعجة، وإذا لم يكن ممكنًا توفر حياة واضحة صافية، عندئذ يجب على الإنسان أن يشق طريقه بمناورة بارعة» (21 ـ 22). هذا ما كتبه في خطاب مبكّر، التاسع، إلى فيلس بتاريخ 1 كانون الأول/ ديسمبر 1912. يستمر ليشرح كيف أنه بدأ يرتّب وقته بحيث يكون بمقدوره الجلوس للكتابة في العاشرة والنصف كل ليلة ويعمل حتى الواحدة أو الثانية أو الثالثة صباحًا وذلك حسب جهده وميوله أو حظِّه.

لكن حتى قبل هذا وفي الرسالة نفسها أثار ملاحظة مذهلة تمامًا عن نفسه في هذا السياق: «أنا أنْحَلُ من كل من أعرف (وهذا ينم عن شيء، فأنا لست بالغريب عن المصحّات)»(21). يبدأ هذا الرجل بالإشارة إلى نفسه كأنحل الناس وهو يطلب الحب كما يفترض الإنسان أن هذا مطلبه. لماذا، في الواقع،

تبدو هذه العبارة غير ملائمة أبدًا في هذه المرحلة، بل إنها بالكاد جديرة باللوم؟ الحب مسألة ثقَل، فهنا اعتبار للأجساد؛ لا بدّ للأجساد أن تكون موجودة، فمن المضحك أن يطلب «عديم الجسد» nobody الحب. مرونة قصوى، حيوية، عزيمة ـ كلها يمكن أن تعوّض عن الثقل لكن يجب، كما لو كان، أن تكون فعالة، مؤثرة وواعدة دائمًا. على العكس يقدّم كافكا ما يميّزه: اكتمال ما شاهد وما يشاهد من مظهر شخص محطّ التقرّب؛ هذا الاكتمال هو جسده. لكن لا يمكن تقدير ذلك إلا من قبل شخص له اكتمال التجربة النظرية نفسها؛ لا يستطيع فرد آخر ملاحظتها أو قد يجدها غريبة.

هذه الملاحظة المباشرة والمؤكدة لنحوله لا يمكن أن تعني إلا أنه كان سبب معاناة له: يشعر بالاضطرار للحديث عنه. إنه كما لو توجّب عليه القول: «أنا أصم» أو «أنا أعمى»، لأن دون التصريح بذلك قد يصمه بالمخاتل.

ليس من الضروري قراءة مزيد من اليوميات والرسائل ليصبح المرء مقتنعًا بأنه أمسك بلب وجذر وسواس المرض عند كافكا. يضم مدخل اليوميات المؤرخ في 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1911 الجملة التالية: «من المؤكد أن العقبة الرئيسة لتقدمي هي حالتي الجسدية. لا يمكن إنجاز شيء بجسد مثل هذا. . . . بدني طويل جدًّا بالنسبة لضعفه، لا يحتوي على أدنى حدّ من الدهن الذي يخلق دفئًا مبهجًا، أو أن يحتفظ بوقود داخلي أحيانًا، لا دهن يمكن للروح أن تغذي نفسها منه فوق الاحتياج اليومي دونما تدمير للكل.

كيف يتسنى أخيرًا للقلب الضعيف الذي سبب مشاكل متكررة أن يضخ الدم عبر مسافات هاتين الرِّجلين»[1].

في 3 كانون الثاني/يناير 1912 يعطي وصفًا دقيقًا لتضحياته في سبيل الكتابة: «عندما اتضح في تكويني أن الكتابة هي الاتجاه الأكثر إنتاجًا بالنسبة لشخصي أن أطرقه، اندفع كل شيء في هذا الاتجاه مخلّفًا خواءً كل تلك المقدرات التي خصصت من أجل الجنس والأكل والشرب والتأمل الفلسفي وفوق كل ذلك الموسيقى. في كل هذه الاتجاهات كان هناك ضمور. كان هذا ضروريًا لأن قواي كانت بسيطة لدرجة أنها عندما تكون متضافرة يمكنها أن تزوّد ـ ولو نصف طريق ـ هدف كتابتي»[2].

في 17 تموز/يوليو 1912 يكتب إلى «ماكس برود» من «ينجبورن» قائلًا: «لدي فكرة سخيفة أن أسمّن نفسي، وأستمر في ذلك السبيل إلى الشفاء العام، كما لو أن الهدف الأخير أو حتى الأول هو في دائرة الممكن»[3].

تأتي الإشارة التالية لنحلِه في رسالة إلى فيلس بتاريخ 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1912 التي ذكرت سابقًا. بعد عدة شهور في 10 كانون الثاني/يناير 1913 يكتب مرة أخرى لفيلس: «كيف كانت الأمور في الحمّامات المختلطة؟ يا للحسرة هنا يجب أن

---

(1) Diaries, I, P. 160.

(2) المصدر السابق، ص 211. العبارة «الباهتة» في الأصل تقول حرفيًا: «تضاءلت في كل هذه الاتجاهات».

(3) Briefe, P. 98.

أكتب ملاحظة (تشير إلى مظهري في الحمام، نحولي): في الحمام أبدو كيتيم»(152). عندئذ يذكر كيف أنه كصبي في مصيف على الإلبي Elbe كان يتجنب منطقة السباحة الصغيرة جدًّا والمزدحمة لأنه كان يشعر بالخجل من مظهره.

في أيلول/سبتمبر 1916 يقرر مراجعة طبيب وهذا عمل فيه مغامرة غير معتادة بالنسبة له حيث إنه يرتاب من الأطباء ويكتب لفيلس عن هذه الزيارة: «كان الطبيب الذي قمت بزيارته لطيفًا جدًّا. شخص هادىء وله حس دعابة لكن مع ذلك ولسِنّه وحجمه الجسدي (كيف يمكن الوثوق في شخص له طولي ونحافتي هو أمر لن أتمكن من فهمه أبدًا) ـ كما كنت أقول، لحجمه. . . . يوحي بالثقة»(499).

لأذكر عدة مقاطع إضافية من السنوات السبع الأخيرة من حياته بعد أن أنهى علاقته مع فيلس. من المهم ملاحظة أن فكرة نحافته احتفظت بقوتها لديه حتى النهاية وأثّرت في كل ذكرياته.

في «رسالة إلى أبيه» الشهيرة والتي كتبت في 1919 هناك إشارة أخرى إلى سباحة الطفولة: «أذكر مثلًا، كيف أنَّا خلعنا ملابسنا تكرارًا في كوخ السباحة نفسه. كنت هناك نحيلًا، ضعيفًا، ضئيلًا؛ وأنت قوي، طويل، عريض. حتى داخل الكوخ شعرت بأني نموذج تعيس وأكثر من ذلك ليس فقط في نظرك ولكن في نظر العالم كله لأنك كنت لي معيار كل الأشياء»[1].

---

(1) Franz Kafka, **Letter to His Father** (New York: Schocken Books; 1966), p. 19. Included in **Franz Kafka**, Wedding Preparations in the Country (London: Martin Secker & Warburg, 1954), p. 163.

الأكثر لفتًا للنظر هو الإشارة في إحدى رسائله الأولى إلى ملينا يسنسكا Melina Jesenska في 1920. هنا أيضًا يشعر بالاضطرار خلال المرحلة الأولى من تودّده لامرأة ـ وقد تودّد لملينا بهيام ـ أن يقدم نفسه لها في كل ضآلته: «قبل سنوات عدة اعتدت الذهاب في قارب صغير في المُلداو Moldau وجدفت مرة تجاه مصب النهر ثم طفوت مستلقيًا على ظهري في اتجاه مجرى النهر مع التيار مارًّا تحت الجسر. ولنحافتي الشديدة ربما بدا هذا مثيرًا للسخرية من على الجسر. والكاتب[1]، الذي كان قد شاهدني مرة من فوق الجسر في هذا الوضع وأكّد بدرجة كافية الجانب المضحك في ذلك، لخَّص انطباعاته كما يلي: بدا وكأنه مشهد ما قبل يوم الحساب، تلك اللحظة التي عندها تكون أغطية التوابيت قد أزيحت لكن الأموات ما زالوا يقبعون دون حراك»[2].

ينظر إلى الرجل النحيل والرجل الميّت على أنهما شكلان متطابقان: ويربط هذين بفكرة يوم الحساب. تبرز صورة الوجود الجسدي لديه التي لا يمكن بالكاد أن تكون أكثر بؤسًا أو أكثر تشبعًا بالهلاك. إنه كما لو أن الرجل النحيف، أو الميت، اللذين يتطابقان هنا، كان فيهما مقدار من الحياة كاف فقط ليسمح لهما بالانجراف مع التيار وأن يستسلما ليوم الحساب.

---

(1) كاتب تشيكي يافع كوّن كافكا معه علاقة صداقة عميقة في 1920، انظر:
Franz Kafka, **Letter to Milena** (New York: Schocken Books; London: Martin Secker & Warburg, 1953).

(2) **Letters to Milena**, p. 35.

خلال الأسابيع الأخيرة من حياته في المصحة في كيرلنج Kierling نُصح كافكا من قبل أطبائه بعدم الكلام. أجاب عن الأسئلة كتابة على قطع من الورق تمّ الاحتفاظ بها. سئل مرة عن «فيلس» وكتب الإجابة التالية: «مرة كان من المفترض أن أذهب معها وإحدى صديقاتها إلى الشاطىء البلطيقي Baltic، لكن كنت خجولًا لنحالتي ولخوفي العام».

* * *

لم يفقد كافكا أبدًا حساسيته المفرطة لأي شيء يمتّ بصلة لجسده؛ هذه الحساسية كما توضح الأقوال السابقة، لا بدّ وأن تكون قد بصمت حتى طفولته. في وقت مبكر جعله نحوله متنبّهًا لجسمه. أصبح متعودًا على ملاحظة أي شيء يفتقده جسده. كان قد وجد، في جسده، موضع مراقبة لم تفارقه أبدًا ولم يكن ممكنًا الإفلات من ذلك. ما يشاهده وما يشعر به بخصوصه كان دائمًا مصاحبًا له: لم يكن بالإمكان لواحدة الانفصام عن الأخرى. وبنحوله كمصدر أساسي أصبح مقتنعًا قناعة تامة بهشاشته؛ وربما ليس من الأهمية على قدر كبير معرفة ما إذا كانت هذه الهشاشة دائمًا هي حاله. لكن الشيء المؤكد هو شعوره المبني على هذه القناعة بأنه تحت التهديد. يخشى أن تقتحم جسده قوى غريبة؛ ولِصَدّ ذلك يدرس بيقظة السبيل الذي قد تسلكه هذه القوى. تزعجه بالتدريج أفكار عن الأعضاء مستقلة. تبدأ في النمو لديه حساسية مفرطة لهذه الأعضاء لدرجة أنه في النهاية يتم وضع حارس مستقل لكل منها. لكن بالصيغة هذه تتضاعف الأخطار ـ هناك أعراض لا حصر لها يجب مراقبتها من قبل ذهن مشحون بالشك ويتم ذلك حالما يكون هذا

الذهن على علم بالطبيعة الخاصة للأعضاء وقابليتها للتعرّض للأذى. هناك لحظات من الألم، هنا وهناك، تعيد لذهنه هذه الأعضاء؛ سيكون إهمالها فيه عجرفة ومصدر لوم. هذه الآلام تنذر بأخطار، رسل من الخصم، وسواس المرض هو نِثَار الذعر؛ إنه الذعر الذي يبحث بغرض التسلية عن مسميات ويجدها.

حساسيته للضوضاء هي بعبارة إنذار؛ تعلن عن أخطار ثانوية لم تتضح بعد، يمكن تجنبها عن طريق تجنب الضوضاء كما يتجنّب المرء الشيطان: كان مسؤولًا عن الأخطار المعروفة التي يصد هجماتها المدبّرة عن طريق تسميتها.

غرفته ملجأ، تصبح جسدًا خارجيًا ويمكن للمرء تسميتها «مقدمة جسده»: «يجب أن أنام وحيدًا؛ قد تفهمين هذا على أنه جسارة، في الواقع هو تخوف: تمامًا كما أنه عندما يستلقي الإنسان على الأرض فإنه لن يقع، كذلك كون المرء وحيدًا، لا يمكن أن يصيبه شيء»(176). لا يطيق الزوار في غرفته. حتى العيش مع أسرته في شقة واحدة كان مصدر عذاب له: «لا يمكن أن أعيش مع الناس؛ أكره بشكل قاطع كل أقاربي، ليس لأنهم أقاربي، ليس لأنهم أشرار.. . لكن ببساطة لأنهم أشخاص أعيش بالقرب منهم»(287).

أكثر شكواه من الأرق. ربما يكون الأرق هو ببساطة مراقبة يقظة للجسد لا يمكن إنهاؤها، تستمر في ملاحظة التهديدات، تَرقُّب الإشارات، التي تفسرها وتشكلها مبتكرة أنظمة من الإجراءات المضادَّة وساعية إلى اللحظة التي تكون فيها هذه

الأنظمة في أمان: اللحظة التي تلغي فيها الأخطار بعضها البعض، لحظة الراحة، عندئذ يصبح النوم تحررًا حقيقيًا، نوم تتلاشى فيه في النهاية حساسية هذا الأرق وتتركه وشأنه، هذه الحساسية التي هي عذاب دائم. هناك عند كافكا نوع من عبادة النوم؛ يعتبر النوم كخلاص. أفضل نصيحة لفيلس يمكن أن يقدّمها كلما أزعجته حالتها الذهنية هي: «نوم! نوم!» حتى القارىء يُصغي لهذا الحضّ كرقية سحرية وبركة.

تشمل التهديدات للجسد كل السموم التي تدخله ـ كنَفَس وطعام وشراب ودواء.

الهواء الملوث خطر. يكتب كافكا عن ذلك دائمًا. على المرء أن يُفكّر في مكاتب العِلّيَّة في رواية «المحاكمة The Trial»، أو في استديو الرسام تيتوريللي Titorelli الذي كانت فيه الحرارة فائقة. الشعور بأن الهواء السيىء هو حظ تعيس وأنه يؤدي إلى شفا الهلاك. تمتلىء مذكرات سفر كافكا بالإعجاب بالهواء النقي. ينام حتى في أشد الليالي برودة والنوافذ مشرعة. التدخين ممنوع؛ التدفئة تستنفد الهواء، يكتب في غرفة ليس فيها تدفئة. يمارس بانتظام الرياضة البدنية قرب نافذة مفتوحة. جسده يقدّم ذاته للهواء الطلق ليتمكن من الانسياب على الجسد والمسام. لكن الهواء الصحيح في الريف؛ حياة الريف هي ما يحضّ أخته المفضّلة أوتلا Ottla على تجربتها وفي ما بعد يجعلها حياته لأشهُرٍ دون انقطاع.

يبحث عن الطعام الذي يتأكد أنه غير ضار. لفترات طويلة يقتصر طعامه على الخضروات. في البداية لا تبدو طريقة أكله متقشّفة؛ في ردّ على استفسار متلهف من فيلس يبعث لها بقائمة

الفواكه التي انتقى منها شيئًا في المساء. يسعى لصدّ السموم والأخطار عن جسده. كنتيجة ملائمة لذلك حرمان نفسه القهوة والشاي والكحول.

هناك شيء من الحيوية والخفة في مقولاته عندما يكتب عن هذا الجانب من حياته، بينما يبرز اليأس في أحاديثه عن الأرق. هذا التناقض لافت إلى حدّ يغري المرء بطلب إيضاحه. ينجذب لما ينصح به ممارسو العلاج الطبيعي وذلك بسبب تصوّرهم للجسم كوحدة؛ يؤيدهم بكل تفكيره في رفضهم لعلاج أعضاء معينة. خلال نوبات الأرق يتفكّك هو إلى أعضاء منفصلة، ويترقَّب إشارات منها ويتملّى في تحركاتها المشؤومة؛ لذا هو في حاجة إلى منهج يجعل الوحدة وصفة لجسده. بالنسبة له الدواء الرسمي مضر لأنه يهتم بشكل طاغ بالأعضاء المنفصلة. في رفضه للدواء هناك بالطبع مقدار من كراهية الذات: هو، أيضًا، عندما يستلقي أرقًا في الليل يبحث عن أعراض.

هكذا يندفع بنشوة إلى كل نشاط يتطلب ويستعيد وحدة الجسد. السباحة، ممارسة الرياضة وهو عار، تسلق الدرج بقفزات متهورة، الجري، المشي الطويل في الريف الذي مكنه من التنفس بحرية، كل هذه تبعث الحياة فيه وتمنحه الأمل إنه لمرة أو حتى لفترة أطول قد يمكنه الإفلات من تشظي الليلة المؤرقة.

* * *

قرب نهاية كانون الثاني/يناير 1913 وبعد محاولات متكررة في الاستمرار تخلى كافكا في النهاية عن كتابة روايته «أميركا»؛ لذا تتجه لهجة خطاباته أكثر فأكثر نحو التبرّم. قد يغري

المرء أن يقول من الآن فصاعدًا إنّ الخطابات كانت في خدمة الشكاوى. لا يوجد شيء يعادل خيبته؛ الليل الذي خلاله وجد نفسه، ومبرراته، وحياته الحقة، كل هذه تمتُّ بشكل رئيس إلى الماضي. الشكوى وحدها تبقيه كيانًا واحدًا؛ تحلّ محل الكتابة كعامل متمّم أو مجمّع ـ وهي بالتأكيد دون ذلك قيمة ـ لكن بدونها قد يفقد النطق ويكون في حالة تشظٍّ من الألم. أصبح متعودًا على حرية الخطابات التي يستطيع أن يقول فيها كل ما يود قوله؛ هنا على الأقل تخفّ حدّة الصمت الذي أصابه عندما كان في صحبة الناس. إنه في حاجة لخطابات من فيلس، التي تذكر له كما سبق، عن حياتها في برلين؛ وإذا لم يتلق كلمات جديدة يمكن التمسّك بها، يصبح وكأنه «محاط بفراغ»(217). فإنه بالرغم من الشعور بعدم الاستقرار الذي «يتبع عدم كتابتي مثل الروح الشريرة»(159)، يظلّ بالنسبة لنفسه موضوع مراقبة. ووقتما يتعلم القارىء أن يقرأ ترديدات شكواه كنوع من اللغة التي يُساق إليها كل شيء آخر بغرض الحماية يتأكد أن عبر هذه الوسيلة، التي هي مُعَبِّر باستمرار، يأتي ذكر ملاحظات مهمة جدًّا عن كافكا، كل ذلك بدقة وصدق لا يتأتيان إلَّا لكتّاب قلائل آخرين.

مقدار الحميمية في هذه الخطابات يُحيِّر الخيال: إنها أكثر حميمية مما يمكن أن يكون عليه أكمل وصف للسعادة، لا يوجد وصف آخر للتردد يمكن مقارنة هذا به؛ لا بوحَ ذاتيًّا له مثل هذه الصراحة. بالنسبة لشخص ساذج قد تكون هذه المراسلات مستحيلة القراءة؛ قد يعتقد أنها عرض مخزٍ للعجز النفسي: ـ كل هذا يتوفر هنا ـ عدم الحسم، التخوف، تبلد الشعور، وصف دقيق لعدم المحبة، شعور بالعجز على درجة

كبيرة جدًّا بحيث لا يمكن تصديقه إلا بوصف مبالغ في دقته. لكن كل هذا تمت صياغته ليصبح في آن واحد قانونًا ومعرفة. يجد المرء نفسه رافضًا التصديق في البداية، لكن بسرعة يزداد في الوثوق ويتأكد أنه لا يمكن أبدًا نسيان أي منه فيكون كما لو أنه نُقش، كما في «مستعمرة العقاب» In the Penal Colony، على جسد القارىء. هناك كتّاب قلائل، كما هو معروف، يتميزون تمامًا فيما يقولون لدرجة أن أيّ تفوه يمكن للمرء أن يتجرأ بنطقه عنهم لا بدّ وأن يكون مواليًا. فرانز كافكا كان من هذا الصنف من الكتّاب؛ تبعًا لذلك على المرء أن يتتبع كلامه بدقة قدر الإمكان مع خطورة أن يبدو بمظهر الخنوع. بالتأكيد يشعر المرء بالحياء وهو يَشْرَع في اقتحام حميمية هذه الرسائل، لكن الرسائل نفسها تزيل حياءه. فخلال قراءتها يتحقق المرء أن قصة مثل «المسخ» هي حتى أكثر حميمية من تلك الرسائل؛ ويتمكن المرء في النهاية من معرفة السبب الذي يجعلها مختلفة عن سواها من كل القصص الأخرى.

أهم شيء فيما يتعلق بفيلس هو أنها كانت فعلًا موجودة، أنها لم تُبْتكر، وأنها بالطريقة التي كانت عليها لم يكن بالإمكان أن يبتكرها كافكا. كانت إلى حدّ بعيد مختلفة، نشطة جدًّا ومتماسكة ككتلة مدمجة [مقارنة بتشظّيه، المترجم للعربية]. طالما كان يحوم حولها عن بُعد فإنه ألّهها وعذّبها. أثقلها بأسئلته وطلباته، تخوفاته وآماله الصغيرة وذلك كله بغرض انتزاع رسائل منها. يسري الحب الذي منحته إياه في قلبه مثل الدم، كما صرح في إحدى رسائله، وليس له من دم آخر. استفسر إن كانت

لاحظت أنه من خلال خطاباته لم يكن يحبها في الواقع فلو أنه أحبها لتوجب عليه ألا يفكر إلا فيها ولا يكتب إلا عنها. كما حدث فعلًا، عبدها وتوقع مساعدتها وتبريكاتها في أتفه الأشياء: «هذه أوقات، يا فيلس، أشعر فيها أن لك سلطة كبيرة عليَّ لدرجة أني أعتقد أن بإمكانك تغييري إلى رجل في استطاعته عمل الأشياء المعتادة»(197). في لحظة مناسبة يشكرها: «يا له من شعور جميل أن أكون تحت رعايتك في مواجهة هذا العالم المخيف الذي لا أتجرأ على منازلته إلا خلال ليالي الكتابة»(249).

يشعر أن أبسط جرح يصيب شخصًا آخر وكأنه يصيبه هو. قسوته هي قسوة اللامحارب الذي يشعر بالألم مسبقًا. يتجنب بخشية المجابهة، كل شيء يخدش بشرته، لكن يترك المعتدي يفرّ دونما أذى. لو كانت هناك ملاحظة قد تزعج فيلس فإنه ينبهها إليها في خطابه التالي، وذلك بحدة، ويكرر اعتذاره؛ لكنها لا تلاحظ شيئًا، ولا حتى تفهم بشكل عام فحوى كلامه. هكذا حسب طريقته عاملها معاملة الخصم.

ينجح في تلخيص طبيعة اللاحسم لديه: «هل لاحظت البتّة كيف أنه في داخلك وبعيدًا عن تأثير الآخرين تبرز احتمالات متعددة في اتجاهات مختلفة لدرجة أن تصبح في الواقع بمثابة تجميد كل تحركاتك»(185).

لا يمكن المبالغة في تقدير أهمية هذه الاحتمالات المختلفة التي تبرز في هذا الاتجاه أو ذاك وحقيقة أنه يلاحظها جميعًا في وقت واحد. إنها تبيّن علاقته الفعلية مع المستقبل، فجزء كبير من عمله يتكوّن من خطوات غير واثقة نحو احتمالات

دائمة التقلب للمستقبل. لا يعترف بمستقبل واحد، هناك أكثر من مستقبل؛ هذا التعدّد يشلّه ويثقل خطاه. فقط عندما يكتب، عندما يتناول أحد هذه «المستقبلات» بتردد، يمعن نظره فيه ويستثني الأخرى؛ لا يمكن أبدًا ملاحظة جزء أكبر مما تسمح به الخطوة التالية. هنا تكمن مقدرته الفنية الحقيقية: في إخفاء المسافات. من المرجح أن هذا التقدّم في اتجاه معين والابتعاد عن الاتجاهات الأخرى المحتملة هو الذي يجعله سعيدًا خلال الكتابة. مقياس الإنجاز هو الحركة الأمامية نفسها ووضح الخطوات التي تتتابع دون حذف أي منها والتي عندما تُنجز لا مجال للشك في أي منها. «لا أستطيع أن أسرد قصة بطريقة صحيحة؛ بالكاد أستطيع التحدث؛ عندما أحكي قصة يكون لدي عادة الشعور نفسه الذي ينتاب صغار الأطفال عندما يخطون خطواتهم الأولى»(270).

بانتظام يشكو من صعوبات التحدث وقلة الكلام في صحبة الناس ويصف هذه الصعوبات بوضوح متميز: «أضعت أمسية أخرى مع عدة أشخاص. . . . عضضت شفتي لأوقف شرود انتباهي، لكن بالرغم من كل مجهوداتي لم أكن حاضرًا هناك، لكن بالتأكيد لم أكن كذلك في مكان آخر؛ لذا ربما لم أكن على قيد الحياة أبدًا خلال هاتين الساعتين؟ لا بدّ وأن هذا ما حصل، فحضوري ربما كان أكثر إقناعًا لو كنت نائمًا في كرسيي؟»(200). «أعتقد جازمًا أنه ميئوس مني بالنسبة لكل العلاقات الاجتماعية»(271). يذهب أبعد من ذلك ويدّعي، مما يستوجب التعجب، أنه خلال كل رحلاته ولأسابيع دونما انقطاع مع ماكس برود لم يدخل في حديث واحد طويل ومترابط معه يستحوذ على ذاته.

«أكون أكثر ارتياحًا في محيط معتاد مع اثنين أو ثلاثة أصدقاء؛ عندئذ أكون طليقًا، غير مجبر على أن أكون يقظًا وغير مطلوب مني المشاركة باستمرار، لكن أستطيع المساهمة فيما يجري إذا أو عندما أرغب في ذلك وحسب حماسي؛ لا أحد يفتقدني، لا أحد يشعر بعدم الارتياح لوجودي. لو كان هناك شخص غريب يسبب إزعاجًا فهذا أفضل، فحينئذ عن طريق عزيمة مستعارة يبدو أن في استطاعتي أن أكون مليئًا بالحيوية. لكن لو كنت في مكان غير مألوف بين عدد من الغرباء أو أشخاص أعتقد أنهم غرباء عندئذ يكون صدري تحت وطأة ثقل الغرفة كلها ولا أستطيع الحركة»(271).

دائمًا يحوّل مثل هذه الأوصاف المضادة إلى تحذيرات ورغم عددها الكبير فإنه يستمر في إعادة صياغتها: «المشكلة هي أني لست في طمأنينة مع نفسي؛ لست دائمًا «شيئًا ما»، ولو حتى كنت «شيئًا ما»، فإني أدفع مقابلها «كوني لا شيء» لأشهر دون انقطاع» (213). يشبّه نفسه بطائر يبقى بعيدًا عن عشه بسبب لعنة ويظلّ يحوِّم حول العش الخالي تمامًا دون أن يغيب هذا عن نظره.

«أنا الآن شخص مختلف عما كنت عليه خلال الشهرين الأولين من مراسلتنا؛ إنه ليس تحوّل إلى حالة جديدة، بل عودة إلى حالة قديمة ولا شك دائمة» (212). «حالتي الراهنة... ليست حالة استثنائية. لا تقعي فريسة، يا فيلس، بسوء الفهم هذا! لا يمكنك المعيشة معي ولو ليومين» (215). «في النهاية، أنت فتاة وترغبين رجلًا وليس دودة أرض رخوة»(211).

إحدى الأساطير المضادة التي وضعها لحماية نفسه

وتجنب القرب الجسدي واقتحام فيلس حياته كانت تتعلق بكراهيته للأطفال.

«لن أنجب طفلًا»، يكتب في الرسائل الأولى في 8 تشرين الثاني/ نوفمبر (32)؛ لكنه يقولها في شكل غيرة موجّهة ضد إحدى أختيه التي كانت قد وضعت بنتًا. يصبح الأمر أكثر جدية في نهاية كانون الأول/ ديسمبر عندما تتفاقم خيبته من فيلس في رسائل تزداد كآبتها وهجوميتها باضطراد استمرت كتابتها مدة أربع ليال. نعرف أولاها: إنها انفجار الغيرة ضد يولنبرج؛ كذلك الثانية التي يؤنب فيها فيلس لعدم استجابتها لكتابه «تأملات». في الثالثة يقتبس من مجموعة أقوال نابليون: «من التعاسة أن تموت بلا أطفال». يضيف: «ويجب أن أكون مستعدًّا لتحمّل ذلك، فـ. . . لن أتجرّأ أبدًا على تعريض نفسي لخطورة أن أكون أبًا» (134). في الرسالة الرابعة التي كتبت ليلة رأس السنة يشعر بضياع مثل كلب ويصف بطريقة فيها نكاية ضجيج الشارع في رأس السنة. ثم في نهاية الرسالة يرد على جملة لها ـ «نرتبط سويًّا دونما شروط» ـ بأن هذا صحيح تمامًا وأنه ليس هناك رغبة أكبر وأكثر إثارة له خلال الساعات الأولى من السنة الجديدة «من أن نكون مرتبطين سويًّا دونما انفصام عن طريق رسغي يدك اليسرى ويدي اليمنى. لا أعرف لماذا لم يخطر هذا ببالي؛ ربما لأن كتابًا عن الثورة الفرنسية يحتوي على تفاصيل معاصرة يقبع أمامي، ومن المحتمل في النهاية. . . أن زوجين مرتبطين بهذه الطريقة تمّت قيادتهما إلى المشنقة. لكن ما كل هذا الذي يتصارع في ذهني؟. . . إنه رقم 13 في تاريخ السنة الجديدة [الذي يجلب مثل هذه الأفكار]» (136 ـ 137).

الزواج كمشنقة، هذه هي الفكرة التي بدأ بها السنة الجديدة، ولم تتغير خلال السنة رغم كل التحولات والأحداث التي جرت عكس ذلك. بالنسبة له، لا بدّ وأن سبب التعذيب في فكرته عن الزواج أنها لا بدّ وأن تستبعد احتمال أن يكون الإنسان صغيرًا جدًّا لدرجة إمكان تلاشيه: لا بدّ وأن يكون المرء موجودًا. الخوف من سلطة أعلى، شعور أساسي بالنسبة لكافكا ووسيلة مقاومته لمثل هذه السلطة هو التحوّل إلى شيء صغير. تقديس الأماكن والحالات الذهنية ـ هذا التقديس الذي يعمل بطريقة مدهشة بالنسبة له لدرجة أن المرء يشعر أنها قسريّة ـ ليس أكثر أو أقل من تقديس الإنسان. كل مكان، كل لحظة، كل صفة، كل خطوة مهمة وجادة ومتميّزة في ذاتها. من جهة أخرى، الانتهاك غير المنصف يجب تجنّبه عن طريق الابتعاد عنه إلى أقصى نقطة. يصبح المرء صغيرًا أو يحوّل نفسه إلى حشرة حتى يجنب الآخرين الذنب الذي اقترفوه بقتالهم ومقتهم؛ «يحرم المرء نفسه كل التوق» للآخرين الذين يرفضون تركه وشأنه بأسلوبهم الكريه. لكن ليس هناك وضع أقل ملاءمة من الابتعاد عن الزواج. على المرء أن يكون حاضرًا دائمًا، سواءً رغب ذلك أم لا، لقسط من النهار وجزء من الليل، حجم الإنسان يقابل حجم شريكه، حجم لا يمكن تغييره؛ وإلا فإنه لا يمكن أن يكون زواجًا البتة. لكن حيّز الصغر الذي يوجد حتى في الزواج يسرقه الأطفال.

في يوم أحد يتعرّض لـ «الصراخ والغناء والتصفيق المتكرر والممل والمخبول» الذي يسلّي به أبوه في الضحى أحد أحفاده وفي فترة بعد الظهر يسلّي حفيدًا آخر(202). بالنسبة له الرقصات

القبلية أقرب إلى الفهم، لكن ربما حسب ظنه ليس الصراخ هو الذي يسبب له هذا الإزعاج؛ «بشكل عام تحمّل الأطفال في الشقة يتطلب مني قوة. لا أستطيع ذلك، لا أستطيع نسيان نفسي، يرفض دمي التدفق، يصبح متخثّرًا»(202)، وإنها «رغبة الدم» هذه هي التي تبرز نفسها كحب للأطفال.

هكذا هي في الواقع الغيرة التي يشعر بها كافكا في حضور الأطفال، لكنها غيرة من نوع مختلف عما يمكن توقّعه: غيرة مرتبطة باستهجان. في البداية يبدو الأطفال سارقين للصغر، الصغر الذي يود أن يتسلل إليه، لكن يتضح أنهم ليسوا كائنات صغيرة ترغب في التلاشي كما يرغب هو. صغرهم صغر زائف يتعرّض للضوضاء والمؤثرات السيئة من الكبار، صغر يُدفع لأن يصبح أكبر، وهذا ما يسعى إليه أصلًا، عكس ميله الطبيعي الدفين الذي هدفه أن يصبح أصغر وأهدأ وأخف حتى يتلاشى تمامًا.

* * *

لو حاول الإنسان معرفة فرص السعادة، أو على الأقل الرضا، التي كان من الممكن أن يعيشها فسيفاجأ إلى حدّ كبير بمعرفة أنه بعد كل الاعترافات باليأس والتبلّد والفشل، كانت هناك بعض الاحتمالات المؤثرة والمؤكدة.

قبل كل شيء كانت هناك عزلة الكتابة. في خضم كتابه «المسخ»، في قمة إنجازه يطلب من فيلس ألا تكتب رسائل له وهي في سريرها في الليل بل عليها أن تخلد للنوم ولتترك الكتابة في الليل له، وفي هذا احتمال بسيط بإعجابه بعمله الليلي؛ وكدليل على أن العمل الذي هو من امتياز الرجل يوجد في كل

مكان حتى في الصين، فإنه ينسخ لها قصيدة صينية قصيرة لها في نفسه كثير من الإعجاب. باحث صيني ينهمك في عمله لدرجة أنه ينسى النوم وخليلته التي كظمت غيظها بصعوبة، تنتزع قنديله وتسأله «هل تعرف كم الوقت متأخرًا» (59 ـ 60).

هكذا نظر إلى عمله الليلي ما دام يسير على ما يرام وفي سرده للقصيدة لم يشعر بأي انفعال ضد فيلس. فيما بعد في 14 كانون الثاني/يناير عندما تبدّل الوضع بعدما خيبت فيلس آماله وأصبحت كتابته على شفا الترنح يتذكر الباحث الصيني. لكن الآن يستخدم الباحث ليضع حاجزًا بينه وبين فيلس: «ذكرتِ مرة أنك تحبين الجلوس بجانبي وأنا أكتب. فهل لاحظتِ في تلك الحالة أني لم أستطع الكتابة. . . . لهذا لا يمكن للمرء أبدًا أن يكون وحيدًا بدرجة كافية عندما يكتب، لهذا لا يمكن أن يكون هناك سكون كاف عندما يكتب، لهذا الليل ليس ليلًا كافيًا. لهذا ليس هناك وقت كاف تحت تصرف الإنسان، فالطرق طويلة ومن السهل أن يضل المرء. . . . دائمًا اعتقدت أن أمثل الطرق هو الجلوس في أعماق حجرة داخل قبو واسع مقفل ومعي أدوات الكتابة وقنديل، يتم إحضار الطعام ويوضع دائمًا بعيدًا عن الحجرة خارج الباب الأقصى للحجرة. رياضتي الوحيدة تكون المشي لإحضار الطعام عبر القبو المسقوف وأنا في لباس النوم. بعد ذلك أعود لمنضدتي، آكل ببطء وتأنٍّ ثم أعود للكتابة مرة أخرى، وويحَ ما أكتب! من أي الأعماق أمتح!»(155 ـ 156).

على المرء أن يقرأ هذا الخطاب الرائع بأكمله؛ لم يوجد أبدًا مثل هذا القول الصافي والقاسي عن الكتابة. كل الأبراج العاجية في العالم تنهار أمام ساكن القبو هذا؛ والعبارة الخاوية

التي يساء استعمالها ـ انعزال الكاتب ـ فجأة تحمل ثقلًا وأهمية مرة أخرى.

هذه السعادة التي ينجذب إليها بكل أنسجة كيانه هي النوع الوحيد الذي يمتلك مصداقية عنده. وضع ثان مختلف تمامًا يجلب له الراحة هو أن يكون مشاهدًا يلاحظ بهجة الآخرين الذين لا يشركونه معهم ولا يتوقعون منه شيئًا. لذا يستمتع، مثلًا، لوجوده بين أشخاص يأكلون ويشربون جميع الأشياء التي يحرّمها على نفسه. «لو جلست إلى منضدة حولها عشرة أصدقاء جميعهم يشربون قهوة سوداء فهذا المشهد يعطيني شعورًا بالسعادة. قد يتأجّج اللحم حولي حرارة وتشرب البيرة في جرعات كبيرة وقد يقوم كل الأقارب بتقطيع المقانق اليهودية اللذيذة في كل الأماكن. . . . ـ كل هذا وأشدّ لا يثير فيَّ أي إحساس بالعيف؛ بالعكس يمنحني الكثير من الارتياح. ليس هناك مجال للاستمتاع الماكر بهذا. . . بل إنها رباطة جأش وسكون وربما غيرة من مشاهدة الآخرين وهم في بهجة»(163).

ربما هاتان الحالتان من الشعور بالرضا هما اللتان يتوقعهما المرء منه حتى لو أن الأخيرة تحظى بتوكيد أكثر مما كان المرء يتوقع. مع ذلك فإنه لمن المدهش فعلًا معرفة مقدار الانشراح الذي يلقاه هو عند القراءة بصوت مرتفع. هذا الشخص الذي لا يستطيع البكاء تدمع عيناه بعد قراءة «الحكم». خطاب 4 كانون الأول/ديسمبر الذي كتبه بعد هذه القراءة مباشرة مدهش للغاية بسبب تهوره: «عزيزتي، بصراحة أهتم حقًّا بالقراءة بصوت عالٍ؛ الجأر في آذان المستمعين اليقظة والمترقبة يثلج شغاف القلب المسكين. بالتأكيد جأرت لدرجة أني تغلبت على الموسيقى

الصادرة من الغرف المجاورة والتي كانت تحاول أن تثنيني عن القراءة بصوت عال. لا شيء، كما تعلمين، يمنح الإنسان رضا أعظم من تسيير الناس أو على الأقل الاعتقاد أن في مقدوره أن يفعل ذلك» (86). يقول إنه قبل عدة سنوات استمتع بحلم تخيل فيه أنه كان يقرأ في صالة كبيرة مكتظة كامل كتاب فلوبير: «التربية العاطفية» وقد شغف بهذا الكتاب لدرجة الهيام حيث يقرؤه دونما توقف لمدة الأيام والليالي التي تتطلبها القراءة بصوت مرتفع باللغة الفرنسية، و«يجعل الجدران تدوّي»(86).

إنه بالتأكيد ليس «تسيير الناس»، لا يعبّر كافكا هنا عن نفسه بدقّة وذلك لاندفاعه: إن هذا هو القانون الذي يرغب في المناداة به والذي أصبح أخيرًا راسخًا؛ ولو تصادف أن كان الكاتب هنا هو فلوبير، لأصبح فلوبير نفسه شريعة إلهية، وكافكا نبيه. ولكنه يشعر أيضًا بالانعتاق والبهجة لهذا النوع من الرحابة والانشراح؛ في خضم بؤسه في شباط/ فبراير وآذار/ مارس يخبر فيلس فجأة: «أمسية جميلة عند ماكس. قرأت إلى درجة النشوة من قصتي [من المرجح أنها الجزء الأخير من «المسخ»]. فقد أطلقنا العنان لأنفسنا وضحكنا كثيرًا. لو أحكم الإنسان إغلاق الأبواب والنوافذ في وجه العالم فإنه يستطيع من حين لآخر أن يصنع على الأرجح بداية صحيحة وشكلًا مشابهًا لحياة جميلة» (209).

* * *

قرب نهاية شباط/ فبراير تلقى كافكا من فيلس رسالة أزعجته، بدا وكأنه لم يكتب لها أبدًا كلمة من كلمات إهانة الذات وكأنها لم تسمع أو تصدق أو تفهم أي شيء. لم يتناول سؤالها مباشرة، لكن

يرد فيما بعد بفظاظة غير معهودة: «ذلك اليوم. . . سألتني عن خططي وآمالي. تعجبت من سؤالك. . . . لا داعي للقول إنه ليست لدي خطط ولا آمال؛ لا أستطيع أن أسير تجاه المستقبل؛ أستطيع أن أرتطم بالمستقبل، أتحرك نحو المستقبل، أتعثر في المستقبل. هذا ما أستطيع؛ لكن الأفضل هو أن أقبع ساكنًا. أما خطط وآمال ـ بصراحة، ليس لي منها نصيب؛ عندما تسير الأمور على ما يرام أنهك تمامًا في الحاضر، وعندما تكون ليست كذلك، فألعن الحاضر، فما بالك بالمستقبل!» (209).

إنها إجابة بلاغية، ليست دقيقة كما يتضح من طريقته التي يصعب تصديقها في وصف صلته بالمستقبل. عندما يكون في حالة ذعر فإنه يأخذ دور المدافع. بعد عدة أشهر يواجه المرء حالات جيشان بلاغية أخرى من هذا القبيل؛ وهي تتعارض تمامًا مع أسلوب عباراته المتوازن والمناسب على العموم.

لكن عقب هذا الخطاب تتبلور بشكل واضح فكرة زيارة برلين التي بدأت تشغل ذهنه قبل أسابيع. يرغب في رؤية فيلس مرة أخرى ليدخل في روعها الرعب حتى تبتعد بعد أن تراه شخصيًا حيث إن رسائله أخفقت في القيام بذلك. يختار إجازة الفصح لهذه الزيارة، فلديه فسحة يومين في ذلك الوقت. الطريقة التي يعلن بها عن زيارته نموذج جيد لعدم حسمه لدرجة أنه يتوجب اقتباس بعض الفقرات من هذه الرسائل التي كتبت في الأسبوع السابق للفصح. إنها المرة الأولى منذ أكثر من سبعة أشهر التي سيتلاقيان فيها؛ في الواقع ستكون المقابلة الأولى منذ تلك الأمسية اليتيمة.

يكتب في 16 آذار/مارس، الأحد قبل الفصح: «فيلس،

هذا سؤال مباشر: في الفصح، أي الأحد أو الاثنين، هل ستكون لديك ساعة سانحة لي، وإذا كان كذلك، هل تعتبرين قدومي شيئًا طيبًا؟» (224).

يوم الاثنين يكتب: «لا أدري إن كنت أستطيع المجيء. الزيارة ما زال مشكوكًا فيها اليوم، ربما غدًا تكون مؤكدة» (224 ـ 225).

يوم الثلاثاء: «بشكل دقيق، مازال يوجد عائق في طريق زيارتي وأخشى أن يستمر؛ لكن هذا السبب فقد أهميته كعائق؛ لذا حسبما يبدو، أستطيع المجيء. فقط أردت إخبارك هذا بسرعة، عزيزتي» (226).

يوم الأربعاء: «ذاهب أنا إلى برلين لسبب واحد هو أن أكشف لك وأريك من هو أنا في الواقع، خلافًا لما ضلّلتك به رسائلي. هل أستطيع أن أُبيِّن ذلك بوضوح بشخصي أكثر من الكتابة؟... أين أستطيع إذن مقابلتك صباح يوم الأحد؟ مع ذلك إذا عاقني عائق عن المجيء، سأرسل تلغرافًا السبت على أكثر تقدير» (226).

يوم الخميس: «إضافة إلى التهديدات السابقة، هناك تهديدات جديدة بازغة بعوائق محتملة لرحلتي القصيرة. في الوقت الراهن في فترة الفصح تكون هناك عادة لقاءات لكل أنواع الجمعيات وهو شيء لم أفكر فيه من قبل» (227). ربما قد يتوجب عليه حضور اجتماع عام كممثل لشركة التأمين التي يعمل فيها.

يوم الجمعة: «إضافة إلى ذلك ليس من المؤكد أبدًا أني

سأحضر؛ لن يتقرر ذلك إلا صباح غد. . . . لو أتيت سأقيم على الأرجح في أسكانيش هوف Askanische Hof . . . . . لكن قبل أن أظهر أمامك يجب أن أنام نومًا كافيًا»(227).

يبعث بهذه الرسالة الأخيرة صباح السبت 22 آذار/ مارس. يرسل رسالة نهائية: «ما زلت لم أقرر» لكن فيما بعد وفي اليوم نفسه يستقل القطار لبرلين ويصل هناك في آخر المساء.

في أحد الفصح 23 آذار/ مارس يكتب من أسكانيش هوف: «لكن ماذا حصل، فيلس؟. . . الآن أنا في برلين، ويتوجب عليّ أن أغادر مرة أخرى بعد الظهر، الساعة الرابعة أو الخامسة، تمرّ الساعات ولا كلمة منك. لطفًا ابعثي ردّك مع الرسول. . . . أجلس في أسكانيش هوف ـ في انتظار».

كما هو متوقع ومعقول تزعزع اعتقاد فيلس بإمكان مجيئه عبر تصريحات الأسبوع المتناقضة. استلقى على الصفّة في غرفته في الفندق لمدة خمس ساعات في انتظار زيارتها غير المؤكدة. كانت تسكن على مسافة بعيدة نسبيًا، لكن في النهاية تمّت له رؤيتها. لم يكن لديها متسع من الوقت؛ تلاقيا مرتين فقط وذلك للحظات قليلة. هذا كان لقاءهما الأول منذ سبعة أشهر.

لكن يبدو أن فيلس أحسنت استخدام هذه اللحظات القليلة. تتولى كامل المسؤولية منفردة. النتيجة المهمة للزيارة هي قرارها اللقاء مرة أخرى خلال.فترة العنصرة Whitsun .

هذه المرة سيفترقان لسبعة أسابيع فقط، وليس لسبعة أشهر.

لدى المرء انطباع أن فيلس وضعت لها الآن هدفًا وأنها تحاول أن تنفخ فيه العزيمة حتى يصل إلى قرار.

أسبوعان بعد مغادرته يفاجئها بنبأ عمله لدى مزارع في ضاحية برلين وذلك تحت المطر البارد ولا يرتدي سوى قميصٍ وبنطلون. أفاده ذلك. غرضه الرئيس هو أن «أهرب من تعذيب الذات لبضع ساعات ـ عكس عمله الشبحي في المكتب ـ . . . القيام بعمل رتيب، بسيط، مفيد، صامت، صِحّي، منفرد ومُجهِد» (228). يقول إنه بهذه الطريقة يطمع في الحصول على نوم ليلي أفضل. قبل هذا بمدة قصيرة بعث لها ضمن رسالته خطابًا من كُرت وولف Kurt Wolf لتقرأه. يطلب هذا الأخير منه أن يتمكن من نشر «الوقاد» The Stoker و«المسخ». يبدو وكأن هذا بعث لديه الأمل في احتمال تقديرها له ككاتب.

لكن في 1 نيسان/أبريل كان قد كتب لها رسالة مختلفة تمامًا. واحدة من تلك الرسائل المضادة التي اعتاد أن يعلنها مسبقًا بغرض تأكيد حتميتها: «خوفي الوحيد ـ بالتأكيد لا يمكن قول أو سماع شيء أسوأ من هذا ـ أني لن أستطيع أن أمتلكك. . . أجلس بجوارك وأحس، كما حدث فعلًا، بنفَسك وحيوية جسدك بجانبي، لكن في الواقع أكون أبعد عنك حتى عن المكان الذي أنا فيه الآن، في غرفتي. . . . رغم أنك تميلين نحوي لدرجة أنك تقتربين من دائرة الخطر، فإني سأُحرم منك إلى الأبد» (233). يشير هذا الخطاب إلى أن لديه تخوفًا من العجز؛ لكن لا يجب إعطاء هذه النقطة أهمية كبيرة، ويجب فهمها فقط كواحدة من تخوفاته الجسدية الكثيرة، كما تمّ مناقشته بالتفصيل فيما سبق. لا تتجاوب فيلس وكأنها لم

تفهم شيئًا مما قاله أو كما لو أنها تعرفه معرفة كبيرة جدًّا لدرجة أنها لا ترغب أن تفهم.

لكن خلال الأيام العشرة التي تقوم فيها في فرانكفورت بتنظيم معرض لشركتها لا يتلقى إلا النزر اليسير من أخبارها؛ كروت بريدية فقط وتلغراف من المركز التجاري. بعد عودتها إلى برلين تكتب أيضًا مرات أقل وباقتضاب أكثر. ربما قدّرت أن هذه هي الطريقة الوحيدة للتأثير عليه، وأن عدم الكتابة يدفعه إلى اتخاذ القرار الذي تأمله. بوضوح، يصاب بالانزعاج: «خطاباتك الأخيرة مختلفة، لم تعد أموري تهمك والأسوأ: لم تعودي تهتمين بإخباري عن نفسك» (247). يناقش معها رحلة «العنصرة». يرغب في لقاء أبويها وهذه خطوة مهمة. يتوسل إليها أن تقابله في المحطة لأنه دائمًا يصل في حالة يرثى لها.

في 11 و12 أيار/مايو يراها مرة أخرى في برلين. في هذه المناسبة يقضي معها وقتًا أطول من وقت الفصح وتستقبله أسرتها. في مدة وجيزة بعد ذلك يذكر أن أسرتها أعطته انطباعًا بأنها غير مكترثة به بشكل عام: «شعرت بأني صغير جدًّا بينما وقفوا حولي مثل العمالقة وعلت وجوههم تعابير مشؤومة. . . . يتلاءم ذلك تمامًا مع الوضع: أنتِ منهم، لذا هم كبار، أنتِ لست لي، لذا كنت صغيرًا . . . . لا بدّ وأني تركت انطباعًا بالغ السوء لديهم» (257). الميزة الملحوظة في هذا الخطاب هي ترجمة علاقات السلطة والملكية إلى عبارات كبر وصغر جسدي. وتشبيه الشخص الصغير كعاجز معروف لنا من كتاباته. توجد هنا الصورة المقابلة في ضخامة أفراد أسرة فيلس وهذه الضخامة بالنسبة له مستبدة.

لكن ليست فقط الأسرة، خصوصًا الأم، التي تسبب له الذعر وتشلّه؛ تزعجه أيضًا طبيعة تأثيره على فيلس نفسها: «أنتِ لست أنا، طبيعتك أن تقومي بعمل شيء؛ أنت نشطة، سريعة البديهة، حادة الملاحظة؛ شاهدتك في المنزل... ورأيتك بين غرباء في براغ، كنت دائمًا عطوفة لكن واثقة من نفسك، لكن عندما تكونين معي تسترخين، تديرين رأسك أو نظرك إلى الحشيش، تتحملين الأشياء السخيفة التي أقولها بالإضافة إلى صمتي المبرّر والمتكرر. لا ترغبين بشكل جاد معرفة أي شيء عني بل ببساطة تقاسين، تقاسين، تقاسين» (256). حالما تكون معه لوحدهما فإنها تبدأ في التصرف مثله: تصمت وتصبح متردّدة وكئيبة. من المحتمل بالطبع أنه أساء فهم سبب تردّدها: لا يمكن أبدًا أن ترغب بكل جدية في الاستماع إلى ما يود قوله فهي تعلم حاصل ذلك، شكوك جديدة في صيغ بلاغية لا تستطيع أن تضع في مواجهتها إلا عزمها البسيط على أن تكون متجاوبة. علاوة على ذلك، إلى أي مدى ما زالت صورتها عنده التي تحدّدت بتلك الليلة اليتيمة في براغ «بين الغرباء»؟ ربما الآن يمكن إدراك سبب مناقشتي في البداية الليلة الأولى بشكل مفصّل.

لكن مهما برزت وساوس جديدة بسبب تصرفاتها في حضوره فهو يعد بكتابة رسالة لأبيها على أن يبعثها لها أولًا لاستطلاع رأيها. في 16 أيار/مايو يقول إنه سيكتبها؛ ومرة أخرى في 18 أيار/مايو. في 23 أيار/مايو يحدّد مكونات الرسالة ولكنه لا يوفق في صياغتها؛ لا يتمكن من إيجاد وسيلة لكتابتها. في الوقت نفسه تستخدم سلاحها الوحيد، الصمت؛ ولعشرة أيام تتركه دونما أية أخبار. «شبح رسالة» يصل؛ ويشكو بمرارة في

هذه الرسالة الباهتة. يقتبس منها: «جميعنا هنا نجلس في المطعم في حديقة الحيوان بعد قضاء فترة العصر في الحديقة. أكتب الآن من تحت المنضدة، بينما أناقش خطط السفر للصيف القادم» (264). يتوسل إليها أن تكتب كما كانت تفعل في السابق: «عزيزتي فيلس، رجاءً اكتبي وأخبريني عن نفسك كما في الأيام الخوالي، عن العمل، عن أصدقائك، عن أسرتك، عن نزهاتك، عن الكتب؛ لا تقدرين مدى أهمية هذا لحياتي»(265). يرغب في معرفة ما إذا «الحكم» عنى شيئًا لها. يرسل لها «الوقاد» الذي قد نشر توًّا. مرة تكتب بتفاصيل أكثر، وفي هذه المرة يساورها الشك في نفسها. يعدّ «بحثًا» يجب عليها أن ترد عليه، لكنه لم ينجز بعد، وعقب تصريحه هذا تتوقف رسائلها مرة أخرى. في 15 حزيران/يونيو وفي يأس من صمتها يكتب: «ماذا أريد منك؟ ما الذي يجعلني أضطهدك؟ لماذا لا أكف أو أتنبه للإشارات؟ بدعوى رغبتي في إطلاق سراحك مني أفرض نفسي عليك» (268 ـ 269). ثم في 16 حزيران/يونيو يرسل لها أخيرًا «البحث» الذي عمل فيه بتلكؤ لأسبوع كامل. إنها الرسالة التي يطلب منها فيها أن تصبح زوجة له.

لم يكن هناك أكثر غرابة من طلب الزواج هذا. يكدّس فيها صعوباته؛ يذكر أشياء لا حصر لها عن نفسه تقف عقبة أمام حياة الزواج المشتركة، ويطلب منها أن تفكّر مليًّا في كل هذه الأشياء. في الخطابات التالية يضيف مصاعب جديدة. يتم التعبير في هذه الرسائل عن نفوره عن مشاركة امرأة الحياة معه. لكن وبالدرجة نفسها من الوضوح يتخوّف من العزلة ويفكّر في الدعم الذي قد يوفره له وجود شخص آخر. يضع شروطًا تكاد تكون مستحيلة

للزواج ويتوقع رفضًا يريحه، كان هو في الأساس المحرّض له. لكن يأمل أيضًا في شعور واثق وعارم من قِبلها يبدّد كل المصاعب ويشدّه إليها. حالما توافق يدرك خطأه في جعل القرار في يدها. «لم أصل إلى نهاية اعتراضاتي فالقائمة لا نهاية لها»(293). يقلب التفكير في موافقتها كما لو أنها لمجرد المحافظة على الشكليات، ثم يتقبلها كـ«عروسه المحبوبة. ومباشرة. . . لكن ربما للمرة الأخيرة، أقول إني خائف بشكل مضحك من مستقبلنا والتعاسة التي بسبب أخطائي ومزاجي قد تنجم من معيشتنا معًا وستتأثرين بذلك قبلي وبشكل أعمق فأنا في الأساس مخلوق بارد، أناني، قاس رغم ضعفي الذي يخفي بدلًا من أن يخفّف من هذه الصّفات»(293).

والآن تبدأ مقاومته العنيفة للخطبة. تستمر هذه العملية للشهرين التاليين وتنتهي بإفلاته منها. تُبين الفقرة المقتبسة للتو هذا الصراع، بينما كان وصفه لنفسه في البداية ـ كما يطيب للمرء القول ـ مباشرًا، فإن رسائله الآن تشمل، باضطراد يتوافق مع زيادة ذعره، سمة بلاغية. يدافع عن القضية ضد نفسه كمحام يستخدم كل الوسائل المتاحة ولا يمكن إنكار أن هذه الوسائل تكون أحيانًا مشينة. بناءً على رغبة أمه، قدّمت وكالة مباحث سرية في برلين معلومات عن سمعة فيلس ويصف لها فيما بعد «الوثيقة المفصلة التي هي شنيعة بقدر ما هي مدعاة للهزل. سنضحك بخصوصها يومًا» (282). يبدو أنها تتقبل ذلك بهدوء، ربما للنغمة المرحة التي لم تدرك طويتها. لكن بعد ذلك مباشرة في 3 تموز/يوليو، عيد ميلاده الثلاثون، يخبرها أن والديه أظهرا رغبة في معرفة معلومات عن أسرة فيلس أيضًا وأنه وافق على

ذلك. لكن هذا يصيب فيلس في الصميم إذ إنها تحب أسرتها. يدافع عن عمله هذا بجدل مغالط حتى إنه زجّ بأرقِه كعذر. رغم أنه لا يعترف بخطئه فإن يطلب منها المعذرة لأنه جرح شعورها، ويسحب موافقته التي سبق وأن أعطاها لأبويه للحصول على معلومات عن أسرتها. تناقض هذه المسألة بشكل قاطع شخصيته كما نعرفها بحيث إنه لا يمكن تفسيرها إلا بخوفه وهلعه من عواقب الخطبة.

كلما تكون المسألة هي إنقاذ نفسه من الزواج فالذي يستطيع أن يحشده هو البلاغة التي يوجهها ضد نفسه. يمكن مباشرة ملاحظة كونها كذلك؛ ميّزتها الأساسية هي تنكّر تخوفاته وكأنها قلق على فيلس. «ألم أتلوى أمامك الآن لشهور مثل شيء ينفث سمومًا؟ ألست هنا لحظة وهناك اللحظة التالية؟ ألم تشعري بالغثاء لرؤيتي؟ ألم تدركي حتى الآن أنه إذا كان بالإمكان تجنب المصيبة - مصيبتك يا فيلس - فإنه يجب أن أبقى منغلقًا داخل ذاتي؟» (287 - 288). يطلب منها أن تقوم بدعاية مضادة عنه لدى أبيها، حتى لو عنى ذلك إطلاع أبيها على خطاباته: «كوني صادقة مع نفسك، يا فيلس، خاصة وأني لم أكن كذلك. أخبريه من أنا، أطلعيه على بعض الرسائل وبمساعدته ابتعدي عن الدوائر اللعينة التي أعماني الحب عندئذ والآن عليّ إجبارك على دخولها عن طريق الخطابات والتوسلات والتضرعات» (309). تشبه النغمة الابتهاجية إلى حدّ كبير عمل فرانز ڤيرفل Franz Werfel؛ عرف كافكا ڤيرفل جيدًا وشعر بقرب نحوه على الرغم من أن هذا يبدو صعب التفسير اليوم.

لا شك في صدق تألمه؛ وعندما يُخرج فيلس من

الصورة ـ تبدو فيلس هنا وكأنها لا تختلف عن وهم ـ يذكر أشياء عن نفسه تمس شغاف القلب. نظرته الثاقبة إلى حساسيته وطبيعته تتسم بالقسوة والترويع. من ضمن أقوال كثيرة أقتبس فقط واحدة هنا تبدو أكثر أهمية وإثارة للهلع: تذكر أن الخوف واللامبالاة مجتمعين يشكلان أعمق أحاسيسه تجاه البشر (294).

هذا يفسر فرادة عمله الذي نادرًا ما تبرز فيه المشاعر رغم أن الأدب عمومًا يعجّ بها بطريقة فيها ثرثرة وعشوائية. لو تأمل المرء عالمنا بشيء من الجسارة فإنه سيجد عالمًا يطغى فيه تمامًا الخوف واللامبالاة. كان كافكا أول من قدّم هذه الصورة عن هذا العالم معبّرًا عن واقعه دونما إفراط.

في 2 أيلول/سبتمبر بعد شهرين من العذاب الذي يزداد سوءًا باستمرار يعلن كافكا لفيلس فجأة أنه ينسحب. إنه خطاب طويل كتب في لغتين ـ لغة البلاغة ولغة البصيرة. تطلعها هو تحقيق «السعادة الإنسانية القصوى»(315) ـ التي لا تعني شيئًا بالنسبة له، والتي ينبذها من أجل الكتابة؛ تعلّم الدرس من قدوته: «من بين الرجال الأربعة الذين أعتبرهم من أقربائي بالعصبة فعلًا (دونما مقارنتي بهم لا في المقدرة ولا في الرتبة) جريلبارزر Grillparzer، دستيوفسكي، كلايست Kleist وفلوبير، الوحيد الذي تزوّج كان دستيوفسكي وربما يكون كلايست هو الوحيد الذي وجد الحل الملائم عندما أجبرته الضرورات الداخلية والخارجية على قتل نفسه رميًا بالرصاص على الفانسي Wannsee» (315 ـ 316). يقول إنه مسافر السبت إلى ڤيينا لحضور المؤتمر الدولي لعلم الصحة والإسعاف الأولى وسيبقى

هناك على الأرجح إلى السبت التالي ثم يواصل إلى المصحة في ريڤا Riva ليمكث هناك وربما يذهب في رحلة قصيرة إلى شمال إيطاليا. يجب عليها أن تستفيد من هذا الوقت للحصول على الأمن والطمأنينة. من أجل راحة بالها سيستغني عن كل رسائلها. لأول مرة لا يطلب منها أن تكتب. كذلك لن يكتب لها رسائل في الشكل المعتاد. ربما من باب اللباقة لا يخبرها أن المؤتمر الذي يرغب فعلًا في حضوره في ڤيينا هو المؤتمر الصهيوني: مرت سنة على حديثهما عن الذهاب معًا إلى فلسطين.

قضى أيامًا صعبة في ڤيينا. في حالته البائسة عانى مشقة كبيرة من المؤتمر والناس الذين التقى بهم، حاول عبثًا أن يجد رباطة جأش عن طريق كتابة بعض المواد في يومياته ومن ڤيينا واصل السفر إلى البندقية. يؤكد خطاب لفيلس من البندقية في شكل حاسم رفضه مناصرة مشروع الخطوبة. تلت ذلك الأيام في مصحة ريڤا حيث قابل «الفتاة السويسرية»[1]. تعرّف عليها بسرعة: تبع ذلك علاقة حب لم ينكرها أبدًا رغم حذره المعتاد المرهف؛ لن تستمر العلاقة أكثر من عشرة أيام. يبدو أنها أنقذته من كراهية الذات لفترة. انقطعت العلاقة بين كافكا وفيلس لمدة ستة أسابيع، بين منتصف أيلول/سبتمبر ونهاية تشرين الأول/أكتوبر. لم يكتب رسائل إضافية ـ يقبل كل شيء

(1) يذكر كافكا اللقاء مع الفتاة السويسرية عدة مرات في يومياته (15، 20، 22 تشرين الأول/أكتوبر) ومرة في رسالة إلى «ماكس برود» في 28 أيلول/سبتمبر 1913 (**Diaries, I, pp. 301, 303 ff; II**). وعد كافكا بعدم ذكر اسمها على الإطلاق (**Diaries, I, p. 304.**) وأشار إليها فقط بالأحرف الأولى من اسمها (.G أو .G. W).

في ذلك الوقت عدا إصرارها على الخطوبة. لعدم سماعها منه أرسلت صديقتها جريت بلوخ Grete Bloch إلى براغ طالبة منها التوسط بينهما. بدخول شخص ثالث تبدأ الآن مرحلة جديدة ولافتة في العلاقة.

* * *

حالما تدخل جريت بلوخ المشهد يصبح كافكا موزع المشاعر. الرسائل التي كان يكتبها السنة الماضية لفيلس يوجهها الآن إلى جريت. هي الآن التي يرغب في معرفة كل شيء عنها ويطرح الأسئلة السابقة نفسها. يريد أن يتمكّن من تصور مكان سكنها، عملها، مكتبها، رحلاتها. يريد ردودًا مباشرة لرسائله؛ وحيث إن الرسائل تصل أحيانًا متأخرة، ولو أن التأخير بسيط، يطلب منها أن تتبع جدولًا منتظمًا لكنها بالطبع ترفض ذلك. يهتم بمسائل صحتها؛ يرغب في معرفة الكتب التي تقرؤها. في بعض الجوانب كان التعامل أيسر معها فهي أكثر مرونة وتجاوبًا وأكثر انفعالًا. لذا توافق على اقتراحاته. حتى لو لم تقرأ الكتاب الذي يقترح مباشرة فإنها تدوّن ملاحظة عنه وتعود إليه فيما بعد. بالرغم من أن طريقة حياتها لا تناسب صحتها وبالرغم من كون أسلوب حياتها أقل تنظيمًا من فيلس فإنها تعطي اهتمامًا بنصيحته في هذه الأمور؛ تناقش ذلك في رسائلها وبالتالي تحضّه على إسداء اقتراحات أكثر وضوحًا. لا تتيح له الشعور بأن تأثيره عديم الجدوى. في هذه الرسائل كافكا أكثر ثقة في نفسه بل قد يجرؤ المرء على القول بأنه أكثر غطرسة لولا أن كافكا نفسه هو المقصود هنا. بالطبع تسهل عليه الكتابة الآن عندما تمثل في ذهنه خلاصة رسائله السابقة لفيلس وتصبح كلوحة مفاتيح له عليها كثير

من المران. هناك شيء هازل بخصوص هذه الخطابات ـ وهذا نادر جدًّا في الخطابات السابقة ـ وبشكل لا لبس فيه يطلب ودّ جريت.

لكن هناك اختلافان أساسيان. تذمره أقل؛ يكاد يكون مقتصدًا في شكواه، حيث إن جريت بلوخ حالًا تفتح قلبها له وتخبره بصعوباتها هي، يتأثر لحزنها ويتعاطف معها؛ يصبح رفيقها في المعاناة، وفي النهاية يكون حتى أناها الثانية. يحاول أن يغرس فيها كرهه نفسه لـ «ڤيينا»، مثلًا، التي كرهها منذ الأسبوع المشؤوم الذي قضاه فيها الصيف السابق، تلك المدينة التي يبعث برسائله إليها فيها. يبذل أقصى جهده ليجعلها تغادر ڤيينا وينجح في ذلك. لكن من حسن حظها أنها كانت سيدة أعمال قديرة؛ على الأقل هذا ما يعتقده. إنها الميزة الوحيدة التي تجمعها مع فيلس ويستطيع أن يستمد منها السند كما في السابق.

يبقى الموضوع الرئيس لهذه المراسلات، كما هو الحال دائمًا، فيلس. في البداية ظهرت جريت بلوخ في براغ كمبعوثة لها. منذ البدء يستطيع كافكا أن يناقش معها بصراحة كل شيء يمسُّ جانبه من العلاقة. بمهارة تستمر في إمداده بأسباب تجعلها مصدر اهتمامه الأساسي. في أول حديث بينهما تذكُر له أشياء عن فيلس تثير اشمئزازه: مثلًا، قصة علاج أسنانها، وستكون هناك لاحقًا إضافات عن أسنانها الملبَّسة حديثًا بالذهب. لكنها، مع ذلك تتوسط إذا كان كافكا في حالة إحباط، وعندما تتعذر سبل التخفيف عنه ترتب لجعل فيلس ترسل له كرتًا بريديًّا أو رسالة بأية طريقة ممكنة. عرفانه بالجميل يزيد من ودّه لجريت

لكنه يجعلها تدرك أن اهتمامه بها ليس فقط مقتصرًا على علاقتهما المشتركة بفيلس. تصبح رسائله باضطراد أكثر حميمية في كل ما يخص جريت مباشرة. لكنه يتهكم بمرارة ولامبالاة عندما يصف فيلس.

بالضبط هذه المسافة التي يقطعها عن طريق المراسلة مع جريت، وبالتأكيد محادثاته مع صديق جديد، الكاتب إرنست ڤايس Ernest Weiss الذي يكره فيلس، وينصحه بعدم الزواج بها، كل هذا يعين كافكا على تقوية إرادته الذاتية لدرجة أنه مرة أخرى يخطب ودّ فيلس. الآن يصمّم بشكل واضح على إتمام الخطبة والزواج ويستبسل من أجل ذلك بإرادة حديدية يصعب عزوها إليه بعد سلوكه السابق. بالتأكيد هو على علم بذنبه في السنة الماضية عندما فجأة قطع في اللحظة الأخيرة صلته بفيلس وفرّ إلى ڤيينا وريڤا. في رسالة طويلة لفيلس كُتبت عند منقلب السنة 1913 ـ 1914 يذكر لها أيضًا الفتاة السويسرية وفي الوقت نفسه يطلب منها، للمرة الثانية، أن تتزوجه.

لا تختلف حدة مقاومتها العنيدة لها عن شدة تودّده المتشبّث؛ بعد تجربتها معه لا يمكن لومها على ذلك. تجعله هذه المقاومة بالذات أكثر وثوقًا وتشبثًا. يقاسي الذل وتقلبات مؤلمة؛ حيث إن في استطاعته إخبار جريت عن كل ذلك فإنه يصف لها كل شيء بسرعة وبالتفصيل. يتحوّل جزء كبير من عذابه الذاتي إلى اتهامات موجّهة ضد فيلس. لو قرأ المرء الرسائل ـ التي عادة ما كتبت في اليوم نفسه ـ إلى كل من جريت وفيلس فلن يكون لديه أي شك في أيهما يحب. عبارات الحب في خطاباته

لفيلس تبدو مصطنعة وغير صادقة؛ في رسائله لجريت يشعر المرء بوجود فعلي لهذه العبارات بين السطور رغم عدم التصريح بها.

لمدة شهرين تبقى فيلس قاسية الفؤاد ولامبالية. كل الأشياء المؤلمة التي قالها عن نفسه في العام السابق يتلقاها الآن منها مختصرة في جملها البسيطة. لكن بشكل عام لا تقول شيئًا البتة. خلال زيارة غير متوقعة لبرلين وفي نزهة في حديقة التيرجارتن Tiergarten يعاني أسوأ ما واجه من ذلّ. يحقّر نفسه أمامها «مثل كلب» لكنه لا ينجز شيئًا. وَصْف هذا الذلّ وأثره عليه الذي يشغل عدة رسائل إلى جريت يمثّل أهمية حتى في معزل عن سياق الخطبة. إنه يبيّن إلى أي مدى يعاني كافكا عندما يتعرّض للمهانة. بالتأكيد كانت مقدرته على جعل نفسه صغيرًا عن طريق التحوّل هي موهبته الخاصة لكنه استخدم هذه الموهبة في اختزال المهانات وما جعل في الإمكان التمتع بذلك كان نجاحه في هذا الاختزال. في هذا المجال يمكن تمييزه بشكل قاطع عن دستيوفسكي؛ بالعكس كافكا هو أكثر الناس كبرًا. وحيث إنه متشبّع بدستيوفسكي وغالبًا ما يعبّر عن نفسه مستخدمًا تعابيره فإن المرء يضل أحيانًا في إساءة فهمه بخصوص هذه المسألة. لا ينظر إلى نفسه أبدًا على أنه دودة دون كره نفسه على هذه النظرة.

عقب ذلك أصبحت فيلس غير واثقة بسبب فقدانها أخيها الوسيم الذي كان محط إعجابها والذي يبدو أنه غادر برلين لتورطه في أمور مالية ومن ثم توجّبت عليه الهجرة إلى أميركا. تهاوت مقاومتها. مباشرة يلحظ كافكا فرصته وبعد مضي أربعة أسابيع يفلح في إجبارها على الخطبة. في فصح 1914 في برلين يصبحان خطيبين بشكل غير رسمي.

حال عودته إلى براغ يكتب لجريت عن ذلك: «لا أعرف

أني قمت بعمل شيء بالدرجة نفسها من التصميم»(385). لكن كان هناك أيضًا موضوع آخر لا يمكن تأخير الحديث عنه: «علاقتنا التي بالنسبة لي على الأقل تحتفظ باحتمالات بهيجة لا يمكن التفريط فيها، لن تتغير بأي شكل بسبب خطوبتي أو زواجي» (385). يكرّر طلبه بلقائها الذي طالما تخيّله ومن الأفضل أن يكون اللقاء في جمُند Gmünd التي تقع عند منتصف المسافة بين براغ وڤيينا. في السابق ظن أنهما يستطيعان اللقاء، فقط كثنائي، مساء سبت في جمُند ويعودان لمدينتيهما مساء الأحد؛ ما يفكّر فيه الآن هو لقاء يجمعهما مع فيلس.

يزداد مقدار محبته لجريت بعد خطبة الفصح. بدونها كان من المستحيل أن تتم الخطبة، وهو يدرك ذلك. منحته السند الذي كان في حاجة له وذلك بعدم تحيز لصالح صديقتها فيلس، لكن الآن وقد وصل إلى حيث هو يجد أنه في حاجة أمسّ لها أكثر من ذي قبل. بالنسبة له، تتسم طلباته باستمرار الصداقة بينهما بطابع عاصف. تطلب منه إعادة رسائلها ويرفض، يتشبث بها وكأنها خطابات خطيبته. يحثّها على قضاء الشتاء في الشقة نفسها التي سيعيش فيها هو وفيلس بالرغم من أنه لا يطيق وجود أي شخص معه في الغرفة أو المنزل نفسه. يتوسّل إليها القدوم إلى براغ والسفر معه إلى برلين لحضور الخطبة الرسمية بدلًا من أبيه. يستمر في الاهتمام بأدق أمورها الشخصية، ربما بشكل أكثف من ذي قبل. تخبره أنها زارت متحف جريلبارزر Grillparzer Room في ڤيينا. وهو أمر ألحّ عليها القيام به لمدة طويلة. شكرها للخبر: «لطيف منك الذهاب للمتحف... شعرت بحاجة لمعرفة ذهابك للجريلبارزر وهكذا توطّدت علاقة بدنية بيني وبين المتحف» (404). يصيبها ألم أسنان؛ يرد باستفسارات

جزعة ويصف وهو يقوم بذلك تأثره بـ «الفم شبه المليء بالأسنان الملبسة بالذهب» (405) ـ فم فيلس: «بصراحة، هذا الذهب الوهّاج (في الواقع لمعان شيطاني في مكان غير مناسب) روّعني في البداية لدرجة أنني اضطررت أن أشيح نظري عن رؤية أسنان فيلس. . . بعد فترة كنت ألقي على الذهب نظرة عن قصد كلما سنحت لي الفرصة. . . . وذلك لتعذيب نفسي وفي النهاية لإقناع نفسي بأن كل ما ألاحظه في الواقع صحيح. في لحظة طائشة سألتها إن كنت سببت لها ارتباكًا. بالطبع لم أفعل ـ لحسن الحظ. لكن أصبحت الآن أكثر تقبلًا بشكل كبير. . . . لا أرغب في زوال هذه الأسنان المذهبة، لكن هذه ليست العبارة المناسبة لأني لم أرد أبدًا زوالها. بالأحرى تبدو لي الآن جذّابة إلى حدّ ما ومناسبة تمامًا و. . . تبدو لي الآن وكأنها شائبة بشرية، واضحة ولطيفة، دائمة الحضور، بارزة للعيان وربما جعلتني أكثر قربًا من فيلس مما كان يفعل طاقم أسنان سليم منفّر بطريقته الخاصة»(406).

إنها فيلس بكل عيوبها التي تظهر له الآن ـ وهناك عيوب أخرى سوى الأسنان المذهّبة ـ هي نفسها فيلس التي رغبها زوجة. خلال السنة السابقة كشف لها كل عيوبه بطريقة مروّعة. لم يتمكّن عن طريق هذه الصورة المروّعة إقصاءها عنه لكن هذه الحقائق عنه اكتسبت سلطة عليه أجبرته على الهروب منها ومن فيلس إلى ڤيينا وريڤا. هناك في عزلته وفي بؤسه العميق التقى الفتاة السويسرية ووجد أن في وسعه أن يحب، رغم أنه ظن أن ذلك خارج طاقته. زعزع ذلك التصور أو «التركيب» كما أسماه فيما بعد الذي كان تحت وطأته. أعتقد أنه بالنسبة له أصبح الآن موضوع اعتزاز بالنفس أن يعدّل قصوره وأن يجعل فيلس بحق زوجته. لكنه يجد الآن في مقاومة فيلس نتاج بوحه الذاتي وكشفه

عن عيوبه. سيتوصل إلى تسوية عادلة لو تزوجها بكل عيوبها التي نقّب عنها بشكل فضولي في الوقت الذي ستقبله كزوج.

لكن هذا ليس حبًّا بالرغم من أنه قال لها غير ذلك. خلال مدة كفاحه الشديد من أجل الحصول على فيلس برز حبه لامرأة لولاها لما استطاع التغلب على هذا الصراع - جريت بلوخ. حسب ظنه لن يكتمل الزواج إلا بحضورها. اتّجهت كل أعماله الغريزية في فترة سبعة أسابيع بين الفصح وعيد العنصرة في هذا الاتجاه. كذلك بالتأكيد أمّل في أن تساعده جريت في الظروف الخارجية المربكة التي سيجد نفسه فيها الآن والتي كان متخوفًا منها. لكن تضمّن ذلك فكرة أشمل، بالتحديد أن زواجًا شعر أنه نوع من الواجب وأنه إنجاز أخلاقي لن يكتب له النجاح بدون حب. لوجود جريت سيكون قد أضاف إلى الزواج الحب الذي شعر به نحوها.

في هذا المجال يجب القول إنه بالنسبة لكافكا الذي نادرًا ما شعر بالطلاقة في الكلام تشكّل الحب من خلال الكلمة المكتوبة. الثلاث نساء الأهم في حياته هن: فيلس، جريت وميلينا يسنسكا Melina Jesenska. شعوره لكل منهن تشكّل عن طريق الخطابات.

تحققت الأشياء التي كان يتوقعها: كانت الخطبة الرسمية في برلين وقتًا مروعًا بالنسبة لكافكا. في الحفل الذي قامت به أسرة بوير Bauer في 1 حزيران/يونيو 1914 وبالرغم من وجود جريت بلوخ الذي أسعده شعر بأنه «موثق اليد والقدم كمجرم. فلو وضعوني في ركن مُوْثَقًا بأغلال فعلية وأوقفوا قبالتي رجال شرطة وتركوني مسمَّرًا هكذا لما كان أشدّ سوءًا. وهذه كانت خطبتي؛

حاول كل شخص أن يعيدني إلى الحياة، وعندما فشلوا تقبلوني كما أنا»[1]. هذا ما كانت عليه مادة يومياته بعد أيام عدة. في خطاب لفيلس بعد عامين تقريبًا يصف موقفًا آخر مرعبًا من هذه الأيام، موقفًا ما زال يشعر به في نخاعه؛ كانت مناسبة ذهابه معها «لشراء أثاث في برلين لمسؤول في براغ»: «أثاث ثقيل يظهر أنه لو وضع في مكان فإن من المستحيل تحريكه. ما تقدّره أكثر من أي شيء آخر هو الصلابة. غمّني بشكل عميق الخوان بالذات وهو شاهد قبر بالفعل أو تذكار لحياة مسؤول من براغ. لو بدأ جرس جنازة في الدق عن بعد خلال زيارتنا لمتجر الأثاث لكان ذلك ملائمًا» (462).

في 6 حزيران/يونيو بعد أيام قليلة من الحفل كتب من براغ خطابًا لجريت يبدو بشكل غريب مألوفًا لدى قارىء مراسلات السنة الماضية: «العزيزة الآنسة جريت، كان أمس أحد هذه الأيام حين شعرت أني مكبّل تمامًا، ليس في مقدوري الحركة، ليس في استطاعتي كتابة رسالة إليك بالرغم من أن كل شيء حيّ داخلي كان يحضّني أن أكتب، في فترات، والآن أنت الوحيدة التي تعرف، لا أدري، كيف أني، وأنا من أنا، أستطيع تحمّل مسؤولية الزواج» (420).

لكن موقف جريت بلوخ نحوه تحوّل بشكل حاسم. تعيش الآن في برلين كما كان هو نفسه يرغب ولم تشعر هناك بالعزلة التي شعرت بها في ڤيينا. كان هناك أخوها الذي كانت به شغوفة

(1) Diaries, II, P. 42.

وكذلك كان هناك معارف آخرون من فترات ماضية وكانت تلتقي بفيلس. مهمتها التي لا بدّ وأنها كانت تؤمن بها ـ إتمام الخطبة ـ تمّت بنجاح.

لكن حتى مدة قصيرة قبيل انتقالها إلى برلين كانت تستلم رسائل كافكا؛ كانت ترد عليها، بينها وبين كافكا كانت هناك أسرار تتعلق بفيلس، ولا شك أنه نما لديها شعور قوي نحوه. الرّداء الذي كانت ستلبسه في الخطبة تمّت مناقشته في رسائلهما؛ يظهر وكأنها الخطيبة. «لا تحاولي إدخال تعديلات عليه»، كتب بخصوص الرداء، «مهما كان فإنه سيرى بالتأكيد بعيون محبة جدًّا» (418). كتب لها هذه الرسالة يومًا قبل مغادرته إلى الخطبة الرسمية.

الخطبة التي بالتأكيد لم تكن فيها جريت الخطيبة لا بدّ وأن كانت صدمة بالنسبة لها. بعد ذلك مباشرة شكا لها كافكا بأنه ما زالت هناك ثلاثة أشهر على الزواج وأجابت «بالتأكيد ستبقى حيًّا بعد هذه الثلاثة شهور» (423). هذا التعبير وحده ـ ونعرف أن هناك عددًا كافيًا من هذه التعابير ـ برهان واف على الغيرة التي عانت بالتأكيد منها. بوجود فيلس بالقرب منها حيث تعيش الآن في برلين لا بدّ وأنها شعرت شعورًا قويًّا بالذنب. لتتخلص من هذا الذنب لم يكن أمامها إلّا أخذ جانب فيلس. لذا الآن فجأة أصبح كافكا خصمًا وبدأت تراقب بارتياب أية علامات توضح احتمال عدم جدّية قراره بالزواج. لكنه استمر في الكتابة لها واثقًا، وبشكل متزايد أفضى لها في خطاباته عن تخوفاته بشأن الزواج الوشيك. بدأت تشجّعه على الاستمرار؛ دافع عن نفسه بالحجج القديمة عن وسواس المرض وحيث إن حديثه هنا موجّه إلى جريت فإنه يعرض قضيته بشكل أكثر إقناعًا وبطريقة أكثر

هدوءًا عن خطابات العام السابق لفيلس. نجح في إعطائها إنذارًا بالخطر وحذرت هي فيلس وتمّ استدعاء كافكا إلى برلين لمواجهة الـ«المحكمة».

كانت «محكمة» فندق أسانيش هوف في تموز/يوليو 1914 النقطة الحرجة في علاقة كافكا المزدوجة بالمرأتين. يبدو وكأن إلغاء الخطبة فُرض عليه من الخارج بالرغم من أن كل شيء في تكوين كافكا كان يتحرك في ذلك الاتجاه. لكن يبدو وكأنه هو نفسه اختار أعضاء المحكمة هذه وأعدّهم كما لم يفعل قط أي متهم. رغم أن الكاتب إرنست ڤايس لم يحضر المحاكمة فإنه على الأقل كان يعيش في برلين. كان صديقًا لكافكا لمدة سبعة أشهر. بالإضافة إلى مقدراته الأدبية فإنه أثرى الصداقة بشيء له قيمة لا تقدر بالنسبة لكافكا: رفضه التام لفيلس. من البدايات المبكرة عارض الخطبة. خلال المدة نفسها كان كافكا يسعى للفوز بحب جريت. سحرها برسائله وقرّبها أكثر فأكثر منه. في الفترة بين الخطبة الخاصّة والخطبة الرسمية كانت خطاباته لها وليس لفيلس. وضعها هذا في مأزق لا يمكنها الخروج منه إلا بتغيير كامل ومفاجىء تكون فيها مهيأة للحكم في هذه القضية. وضعت في يد فيلس نقاط الاتهام الأساسية؛ كانت هناك مقاطع من رسائل كافكا لها علمتها بالخط الأحمر. أحضرت فيلس «للمحكمة» أختها إرنا Erna، ربما كمقابل لخصمها المتغيب إرنست ڤايس. قامت فيلس بعرض الاتهام القاسي والضاغن؛ لا تبين الوثائق الشحيحة المتوفرة لدينا عما إذا كانت جريت بلوخ تدخلت بطريقة مباشرة في ذلك الوقت، لكنها كانت هناك وشعر كافكا أنها كانت القاضية الفعلية. لم يقل كلمة، لم يدافع عن

نفسه وتهاوت الخطبة إلى أشلاء تمامًا كما تمنّى. غادر برلين وقضى أسبوعين على الشاطىء مع إرنست ڤايس. في يومياته يصف تبلده الحسي خلال أيام برلين.

أو قد يمكن للمرء أن يلقي عليها نظرة استعادية بالطريقة التالية: كانت جريت بلوخ تحاول بهذا الأسلوب أن تحول دون إتمام ارتباط كانت لديها غيرة منه. كذلك يمكن القول إن كافكا عن طريق هاجس داخلي بعيد النظر وجّهها للذهاب لبرلين ومن ثم عن طريق رسائله كوّن لديها ـ بدلًا منه ـ حالة ذهنية قوية تمكّنها من إنقاذه من الخطبة.

لكن طريقة الانفصال التي اتّخذت هذه الصيغة المركزة كـ «محكمة» ـ كما أسماها كافكا فيما بعد ـ كان لها أثر طاغ عليه. في بداية آب/أغسطس يبدأ ردّ فعله يتبلور. المحاكمة التي استمرت لعامين في خطابات بينه وبين فيلس تحوّلت الآن إلى صيغة مشابهة لـ «المحاكمة»، عمله الأدبي المعروف. إنها المحاكمة نفسها، تمّ له التمرين عليها؛ أدرج فيها أكثر بكثير مما قد تبوح به الخطابات لكن يجب ألا يخدعنا هذا عن طبيعة المحاكمتين. السند الذي بحث عنه لدى فيلس تقدمه له الآن صدمة المحاكمة. في الوقت نفسه واجه العالم حكمًا من نوع آخر: اندلاع الحرب العالمية الأولى.

عزّز من شكيمته الاشمئزاز الذي نظر به إلى الأحداث العامة التي صاحبت نشوب الحرب. لم يكن في تفاعلاته الداخلية والخاصة ذلك الاستخفاف الذي يميّز الكتّاب غير ذوي الأهمية عن كتّاب الخيال. الشخص الذي يعتقد أن لديه المقدرة في فصل عالمه الداخلي عن الخارجي ليس لديه عالم

داخلي يمكن عزل شيء منه. لكن مع كافكا كانت المشكلة أن الضعف الذي قاسى منه ـ الانهيار المؤقت لقواه الحيوية ـ جعله يطرح تفاعلاته «الخاصة» «طرحًا مشتتًا» للغاية وينظر إليها بموضوعية. شيئان كانا يلزمان من أجل التوصل إلى الاستمرارية التي اعتقد بضرورتها الحاسمة: صدمة قوية جدًّا لكن إلى حدّ ما يشوبها الخطأ مثل «المحاكمة» التي جندت فيه حماسة المناضل من أجل الدقة في سبيل الدفاع ضد الهجمات من الخارج؛ وثاق بين جهنم العالم الخارجي وجهنّمه الداخلية. حدث ذلك في آب/أغسطس 1914. يعترف هو نفسه بهذا الترابط وبأسلوبه الخاص عبّر عنه بشكل مميّز.

(2)

حدث حادثان حاسمان في حياة كافكا بطريقة محرجة أمام الملأ رغم أنه دون كل الناس تمنى لو بقيا حدثين خاصين جدًّا: الخطبة الرسمية في منزل عائلة بوير في 1 حزيران/ يونيو، وبعد ذلك بستة أسابيع في 12 تموز/يوليو 1914 «المحاكمة» في أسكانيش هوف التي أدّت إلى إنهاء الخطبة. يمكن إيضاح أن الجوهر العاطفي لكلا الحادثين أُدرج مباشرة في روايته «المحاكمة» التي بدأ كتابتها في آب/أغسطس. تتحول الخطبة إلى الاعتقال في الفصل الأول؛ تظهر «المحاكمة» كإعدام في الفصل الأخير.

تُبرز عدة فقرات في اليوميات هذه الصلة لدرجة أن المرء لا يشعر بوخز ضمير بخصوص إثباتها. ولا يتأثر كمال الرواية بذلك. لو كانت هناك حاجة لتعزيز أهمية الرواية فإن معرفة الرسائل ستقدم الوسيلة لفعل ذلك. لحسن الحظ ليس هناك من داع. لا تنفي الاعتبارات التالية بأي شكل، رغم احتمال تطفّلها، شيئًا من غموض الرواية المتزايد.

يقبض على جوزيف ك Joseph K في بيت يعرفه جيدًا. لا يزال في السرير، المكان المألوف والأكثر حميمية لأي شخص، عندما تبدأ إجراءات اعتقاله. الأكثر صعوبة على

الفهم إذن هي أحداث الصبح: أولًا، شخص لا يعرفه البتة يقف أمامه ثم شخص آخر يخبره أنه قيد الاعتقال. هذه المعلومة، بالرغم من ذلك، أولية فقط وتجري عملية الاعتقال الطقوسية في حضور مفتش في غرفة الآنسة برستنر Fraülein Bürstner حيث لا يحق لأي من الحاضرين بمن فيهم (ك) نفسه الوجود. يعطي تعليمات بارتداء ملابس رسمية للمهمة. في غرفة الآنسة برستنر يوجد بالإضافة للمفتش والخفيرين ثلاثة شبان لا يتعرّف (ك) عليهم أو لا يتعرّف عليهم إلا فيما بعد كموظّفين في البنك الذي يتولى فيه منصبًا رفيعًا بعض الشيء. من المنزل المقابل هناك غرباء يتابعون المجريات. لا سبب أعطي للاعتقال والأغرب من كل شيء هو السماح لـ(ك) رغم إعلان اعتقاله بالذهاب إلى العمل في البنك وكذلك التحرك بحرية لأغراض أخرى.

حرية الحركة هذه بعد الاعتقال هي أول شيء يعيد إلى الذاكرة خطبة كافكا في برلين. عندئذ كان لديه شعور بأن الأحداث التي كانت في الواقع تجري حوله لم تخصه. شعر بأنه وقع في شرك وأنه وسط أُناس أقرب إلى الغرباء. تقول الفقرات ذات الصلة في يومياته: «موثق اليد والقدم كمجرم. فلو وضعوني في ركن موثقًا بأغلال فعلية وأوقفوا قبالتي رجال شرطة وتركوني مسمَّرًا هكذا لما كنت أشدّ سوءًا. وهذه كانت خطبتي». مصدر الإزعاج في كلتا الحالتين هو حدوثهما في العلن. دفعه حضور العائلتين الخطبة إلى الانكفاء أكثر فأكثر على نفسه فقد قاسى كثيرًا من أجل إبقاء أسرته بعيدًا بقدر كاف عنه. شعر بأنهم غرباء بسبب الضغط الذي مارسوه عليه. كان بين الضيوف أعضاء في

أسرة باور لا يعرفهم تمامًا، إضافة إلى آخرين مثل إخوة جريت الذين كانوا غرباء. كان هناك أيضًا آخرون ربما قد رآهم مرة أو اثنتين رؤية عابرة لكن حتى أم فيلس التي تحدّث إليها في السابق سبّبت له عدم الارتياح. أما بالنسبة لأقاربه هو فكما لو كان قد فقد مقدرة التعرّف عليهم لأنهم متعاضدون يقومون بأداء فعل عنيف ضده.

سلسلة مشابهة من الغرباء والمعارف حاضرة عند اعتقال «جوزيف ك». كان هناك السجانان والمفتش، شخصيات جديدة تمامًا؛ الأشخاص في البيت المقابل الذين قد يكون رآهم من قبل دون أن يكونوا ذوي أهمية؛ والشبان من بنكه الذين كان يراهم يوميًا لكن خلال عملية الاعتقال التي يشاركون فيها بمجرد وجودهم أصبحوا غرباء بالنسبة له.

أكثر أهمية المكان الذي يجري فيه الاعتقال، غرفة الآنسة برستنر، يبدأ اسمها بحرف «ب» مثل بوير لكن اسم جريت بلوخ يبدأ أيضًا بحرف «ب». توجد في الغرفة صور عائلية وقميص أبيض معلق من مزلاج النافذة. في ذلك الحين لا توجد امرأة في الغرفة لكن القميص دليل واضح على وجودها.

لكن اقتحام غرفة الآنسة برستنر دون علمها يشغل بال «ك»؛ فكرة الفوضى التي خلفها هناك تثير إزعاجه. عندما يعود من البنك في المساء يدخل في نقاش مع مالكة المبنى السيدة جروباخ Frau Grubach. رغم أحداث الصباح لم تفقد ثقتها فيه. تقول في إحدى عباراتها المطمئنة: «إنه أمر يتعلق

بسعادتك»[1]. الكلمة المستعملة لسعادة هنا ـ Glück ـ مزعجة، متطفّلة بطريقة غريبة تذكّر المرء برسائله لفيلس حيث تستعمل Glück دائمًا بطريقة ملتبسة؛ في الرسائل الأثر الذي تتركه الكلمة أيضًا، وبشكل رئيس، يعني Unglück ـ تعاسة، حظ عاثر. يقول «ك» الآن إنه يرغب الاعتذار للآنسة برستنر لأنه استعمل غرفتها. تطمئنه السيدة جروباخ وتريه الغرفة التي استعادت ترتيبها: «لم يعد القميص متدليًّا من مزلاج النافذة»[2]. الوقت متأخر في المساء وحتى الآن لم تعد الآنسة برستنر إلى المنزل. تنغمس السيدة جروباخ في ملاحظات متنوعة عن حياة الآنسة برستنر الخاصة وهي ملاحظات مثيرة إلى حدّ ما. ينتظر «ك» عودتها وحين عودتها يورطها رغم إرادتها في حديث في غرفتها عن أحداث الصبح، وعندما يسرد تلك الأحداث يتكلم بصوت عال لدرجة أن شخصًا في الغرفة المجاورة يطرق طرقات سريعة. تشعر الآنسة برستنر بتعرّضها للخطر وتنزعج من ذلك؛ كما لو كان يرغب في مواساتها يطبع قبلة على جبينها. يعد بأن يخبر ربة الدار بأنه الملوم لكنها لا تأبه بذلك وتدفع «ك» خارجًا إلى بهو الدخول. عندئذ «أمسكها «ك» خارجًا وقبّلها أولًا على الشفتين ثم على الوجه كله مثل حيوان ظمآن يلعق بشراهة نبع ماء عذب غزير.

---

(1) Franz Kafka, **The Trial** (New York: Schocken Books; 1969). P. 19; (London: Martin Secker & Warburg, 1956), p. 27. (من هنا فما بعد الإشارات للصفحات تعطى للطبعتين الأميركية أولًا ثم البريطانية).

(2) Ibid, p. 21; p. 29.

أخيرًا قبّلها في عنقها، في الحلق مباشرة وأبقى شفتيه هناك لفترة طويلة»[1]. حالما عاد إلى غرفته غط في النوم «لكن قبل ذلك فكر قليلًا في سلوكه، وكان مسرورًا، بما عمل، لكن مندهشًا لأن سروره لم يكن أكبر»[2].

من الصعب عدم الشعور بأن الآنسة برستنر في هذا المشهد ترمز إلى جريت بلوخ. اشتياقه لها حاضر بقوة وإلحاح. تمّ تحويل الاعتقال، المشتق من عملية خطبة فيلس المضنية، إلى غرفة المرأة الأخرى. بينما لم يكن «ك» على وعي بأي ذنب طيلة فترة الصباح فإنه يشعر بالذنب لسلوكه في الليل عند مهاجمته الآنسة برستنر فقد «كان مسرورًا لذلك».

بهذه الطريقة المدهشة في وضوحها يشرح كافكا الوضع المعقد والعصي على الحل الذي وجد نفسه فيه عند الخطبة وذلك في الفصل الأول من «المحاكمة». رغب بإصرار أن تكون جريت بلوخ حاضرة الخطبة بل حتى أبدى اهتمامًا بالرداء الذي تلبسه. ليس ببعيد عن التصوّر أن يكون الرداء تحوّل إلى القميص الذي تدلى في غرفة الآنسة برستنر. في تتابع أحداث الرواية لا يتمكن «ك» رغم محاولاته الحديث مع الآنسة برستنر بشأن ما حدث. بمهارة تتجنبه مما يسبّب له أقصى درجات الإزعاج وهجومه الليلي عليها يبقى سرًّا يشترك فيه الاثنان.

---

(1) **The Trial**, p. 29; p. 38.

(2) Ibid, p. 30; p. 39.

هذا يذكّر أيضًا بعلاقة كافكا بجريت بلوخ. كل ما جرى بينهما بقي سرًّا. لا يمكن الافتراض ـ حيث إنه لا توجد ذرة برهان على ذلك ـ أن يكون قد تمّ إفشاء هذا السرّ في «المحاكمة» في أسكانيش هوف. فالمشكلة هناك كانت موقفه المتردد حيال الخطبة؛ الفقرات في خطاباته لجريت بلوخ، التي بيّنت هذا الموقف، كانت ذات صلة بفيلس والخطبة. لم يتطرق أي من كافكا وجريت إلى السر الحقيقي بينهما. لا تلقي أي من المراسلات الضوء على هذا الموضوع: من البيّن أن جريت أتلفت بعض الرسائل.

الآن لإدراك كيف أن «المحاكمة» التي كان لها الوقع العظيم على كافكا أصبحت الإعدام في الفصل الأخير من الرواية «المحاكمة» يتوجب النظر إضافيًّا في فقرات عدة من اليوميات ومن الخطابات. قرب نهاية تموز/يوليو، يشرع في وصف سلسلة الأحداث بطريقة مستعجلة ومؤقتة كما لو كان الوصف من وجهة نظر خارجية.

«المحاكمة في الفندق . . . . وجه فيلس. سوّت شعرها بيدها، . . . تثاءبت. فجأة تماسكت وذكرت أشياء مدروسة وعدوانية جدًّا لا بدّ وأنها كانت تجمّعها على مدى فترة طويلة. رحلة العودة مع الآنسة جريت بلوخ . . . . في منزل والديها. دموع أمها بين وقت وآخر، سَمّعتُ درسي. فهم أبوها الوضع من كل جوانبه. . . . اتفقا على أني محقّ. لم يكن هناك شيء ـ أو شيء بسيط ـ يمكن قوله ضدي. شيطاني في براءتي. ذنب الآنسة جريت الواضح. . . . .

«لماذا لوّح أبواها وعمتها عند مغادرتي»[1].

«في اليوم التالي لم أقم بزيارة أهلها. فقط أرسلت رسولًا بخطاب وداع. خطاب خادع وعابث. «لا تذكريني بسوء». كلام مرتبط بالمشنقة»[2].

هكذا مباشرة بحلول 27 تموز/يوليو، أسبوعان بعد الأحداث، ثبّت «مكان الإعدام» نفسه في ذهنه. بالكلمة Gerichtshof («محكمة») كان قد دخل عالم الرواية. بكلمة Richtplatz «مشنقة» أو «مكان الإعدام» تمّ التلميح إلى هدف وغاية هذه الرواية. تحديد الهدف مبكرًا يستحق الملاحظة. إنه يشرح التطوّر الوثيق لكتابة «المحاكمة».

شخص واحد في برلين كان معه «لطيفًا بشكل يصعب تخيله» (441). ولم ينس ذلك: إنها إرنا Erna أخت فيلس. هناك العبارة التالية عنها في اليوميات: «أفكر في المشية التي أنا وإرنا مشيناها من عربة الترولي إلى محطة قطار «لرتر» Lehrter. لم نتكلم ولم أفكر في شيء سوى أن كل خطوة كانت بمثابة مكسب لي. وإرنا لطيفة معي، تثق بي لسبب لا يدرك رغم أنها رأتني قبل المحاكمة؛ بين وقت وآخر أشعر بأثر هذه الثقة بي دون أن أصدق مع ذلك هذا الشعور»[3].

يتضافر لطف إرنا وتلويح الأبوين الغامض بعد أن انتهى كل شيء في الصفحة قبل الأخيرة في رواية «المحاكمة»

---

(1) **Diaries**, II, P. 65 - 66.

(2) Ibid, p. 66.

(3) Ibid, p. 68 - 69.

مباشرة قبل الإعدام في تلك الفقرات التي لا تنسى والمدهشة في روعتها: «وقع نظره على الدور العلوي للمنزل المحاذي للفريسة. وفي ومضة كما لو أنها لضوء يسطع فجأة انفجرت درف النافذة مفتوحة، شكل شخص شاحب وواه من ذلك البعد وذلك العلو انحنى بشكل حاد كثيرًا إلى الأمام ومدّ ذراعيه أمامه. من هو؟ صديق؟ رجل طيب؟ شخص متعاطف؟ شخص يرغب المساعدة؟ هل كان شخصًا واحدًا فقط؟ أو الإنسانية؟ هل المساعدة وشيكة؟»[1].

(في النسخة الأصلية تظهر هناك بعد تخطي عدة جمل الأسئلة: «أين كان القاضي؟ أين دار القضاء العالي؟ لدي شيء أقوله. أرفع يديّ»)[2].

* * *

في أسكانيش هوف لم يدافع كافكا عن نفسه. لم يقل شيئًا. لم يعترف بالمحاكمة التي نصَّبت نفسها لمحاكمته وعبّر عن هذا الرفض بالصمت. استمر هذا الصمت لمدة طويلة: لمدة ثلاثة أشهر لم يكن هناك اتصال بينه وبين فيلس. لكنه كتب أحيانًا إلى أختها التي وثقت به. في تشرين الأول/أكتوبر استعادت جريت بلوخ دورها كوسيط وحاولت استئناف العلاقة. لم تبق رسالتها إليه لكن رسالته بقيت: «تقولين إني أكرهك، لكن هذا غير صحيح. . . صحيح أنك في أسكانيش هوف نصّبت نفسك بالجلوس في محاكمتي ـ كان مروّعًا لك، لي، لكل الناس، لكن

(1) The Trial, p. 228; pp. 254 - 55.

(2) Ibid, p. 263; p. 290.

هذا ما كان في الظاهر فقط؛ في الواقع كنت أنا في موقعك الذي إلى هذا اليوم لم أبرحه» (436).

يمكن بسهولة قراءة نهاية هذه الملاحظة كاتهام للذات، اتهام بدأ مبكرًا ويستمر إلى الأبد، لكن لا أعتقد أن هذا يفسره بشكل كامل. يبدو لي أن الأكثر أهمية هو إزاحة كافكا لجريت بلوخ من منصبها كقاضية في محاكمته: يقصيها بعيدًا وينصّب نفسه في المكان الذي اعتقد أنها شغلته. ليست هناك محاكمة خارجية يعترف بها؛ هو نفسه إلى حدّ كبير محكمته وهذه المحكمة لا تنفضّ أبدًا. أما بالنسبة لاقتلاعها لا يقول شيئًا أقوى من «هذا ما كان في الظاهر فقط»؛ لكن إدراكه حقيقة مراميها الخفية يجعلها تبدو كأنها في الواقع لم يكن لها منصب في محاكمته. بدلًا من استبعادها عنوة يبيّن أنها كانت وهمًا. يرفض أن يجابهها لكن بالكاد تخفي نبالة إجابته الحيّز الضيق الذي يذعن لها به، حتى مع كرهه للخصام. هو على دراية بأنه يجري محاكمة ضد نفسه؛ لا أحد آخر كفؤًا لإجرائها؛ وعندما كتب هذه الرسالة كان عصيًّا عليه إتمامها.

بعد أسبوعين وفي أول خطاب طويل لفيلس يقول إن صمته في أسكانيش هوف لم يكن سببه التحديّ لكن هذا إصرار غير مقنع، ففي الجملة التالية مباشرة يكتب: ما ذكرت كان شديد الوضوح لدرجة أني لا أريد تكراره؛ لكن تضمّن أشياء يكاد يكون من المستحيل أن يقولها شخص لآخر... لم أعد أعترض على إحضارك للآنسة جريت؛ في النهاية، فإني أكاد أكون لطخت سمعتك في ذلك الخطاب لها؛ كانت على صواب في حضورها.

لكن أن نسمح لإرنا التي أكاد أكون لا أعرفها في ذلك الحين بالحضور ـ هذا ما لم أستطع فهمه» (437).

نتيجة الأمر، وهو فسخ الخطبة، جاءت حسب رغبته؛ في هذا الشأن ما كان له إلا أن يشعر بالارتياح. لكن ما أزعجه وجلب له الخزي العميق كان الشكل العلني للدعوى. الخزي لهذه المهانة ـ التي لا يمكن قياس شدتها بشكل دقيق إلا مقابل كبريائه ـ بقي في شكل مكثف: ثمرته كانت رواية «المحاكمة» التي انسابت دون فتور حتى الفصل الأخير. يسمح «ك» لنفسه بأن يقاد إلى إعدامه في صمت، بل تقريبًا حتى دون مقاومة. تلك المقاومة، التي تشكِّل مع عناده وتشبثه حركة الرواية، تتخلّى عنه فجأة، بشكل تام. مشيته خلال المدينة تشبه تجميعًا لكل مشياته الأخرى التي كانت مرتبطة بالمقاومة: «ثم برزت أمامهم الآنسة برستنر تعتلي سلمًا قصيرًا يؤدي إلى ميدان من شارع جانبي خفي. لم يكن مؤكدًا أنها هي لكن الشبه كان قريبًا جدًّا»[1]. يبدأ في السير والآن هو الذي يختار الاتجاه: «تقبلوا على مضض أن يكون الآن في المقدمة وتبع هو الاتجاه الذي أخذته الفتاة التي تسير أمامه، ليس لأنه أراد أن يتعداها أو يبقيها في محيط نظره ما أمكن ولكن فقط حتى لا ينسى الدرس الذي ذكّرته به»[2]. إنه الدرس (Mahnung) الذي يذكّره بسرّه وذنبه المكبوت. إنه بمعزل عن المحاكمة التي فارقت تفكيره؛ بمعزل عن الاتهام الذي لم يتمكن أبدًا من العثور على أي شيء عنه. مع ذلك، يمنحه

(1) **The Trial**, p. 225, p. 251.

(2) Ibid.

الدرس قوة في مسعاه أن يتخلّى عن المقاومة في مشيته الأخيرة. كان للخزي الذي ذكر سابقًا انتشار بعيد المدى وصل حتى الجمل الأخيرة جدًّا: «لكن يدي أحد الشريكين كانتا قد أمسكتا بعنق «ك» بينما غرز الآخر السكين بعمق في قلبه وأدارها هناك مرتين، وبعينين خافتتين ما زال في إمكان «ك» رؤية الاثنين أمامه مباشرة، خدُّ أحدهما يلامس خدّ الآخر وهما يراقبان المشهد الأخير. «مثل الكلب»، قال؛ كان كما لو أن الخزي سيستمر في الحياة بعد موته»[1].

* * *

الذلّ الأخير كان الطبيعة العلنية لهذا الموت، الموت الذي شاهده الجلادان، ووجهاهما قريبان من وجهه، وخداهما يتلامسان. تشهد «عيناه الخافتتان» على طبيعة موته العلنية. آخر أفكاره هو الخزي الذي قد يكون من القوة أن يستمر حيًّا بعده وآخر كلماته «مثل الكلب!».

كما ذكر سابقًا، في آب/أغسطس 1914 بدأ كافكا يكتب. تمكّن من أن يكرّس نفسه لعمله كل يوم لثلاثة أشهر عدا أمسيتين فقط أبعدتاه، كما يذكر باعتزاز في خطاب لاحق. بشكل رئيس كان يكتب رواية «المحاكمة»، الموضوع الأساسي لحماسه. لكن هناك أيضًا كتابات أخرى؛ كان من الواضح أن العمل دون انقطاع على الرواية غير ممكن. في آب/أغسطس بدأ أيضًا «مذكرات سكة حديد كالدا» Memoirs of The Kalda Railrood

(1) **The Trial**, p. 229; p. 255.

التي لم تستكمل أبدًا. في تشرين الأول/أكتوبر أخذ إجازة أسبوعين بغرض الاستمرار في الرواية لكن عوضًا عن ذلك كتب خلال هذه الفترة «في مستعمرة العقاب» In the Penal Colony والفصل الأخير من «أميركا».

خلال الإجازة حاولت المرأتان استئناف الاتصال به. يتلقى أولًا رسالة من جريت بلوخ التي تمّ اقتباس فقرة من ردّه عليها سابقًا. يبدو هذا الردّ قاسيًا ـ ينسخه في يومياته ويعلق عليه: «أعرف أنه من المؤكد أني سأستمر في الحياة وحيدًا»[1]. يفكّر في كراهيته لفيلس «عند مشاهدتها وهي ترقص وقد غمضت عينيها القاسيتين، أو عندما مرّرت يدها على أنفها وشعرها في أسكانيش هوف قبل أن تغادر ببرهة قصيرة، وكذلك اللحظات الكثيرة من النفور التام»[2]. لكنه بالرغم من ذلك ظلّ «يلعب» بالرسالة طيلة المساء؛ توقف عمله رغم شعوره أن في استطاعته الكتابة. «من الأفضل للجميع لو لم تَرُدّ، لكنها ستَرُدّ وسأنتظر ردّها»[3].

بحلول اليوم التالي يصل شعوره بالمدافعة والإغراء إلى أوجه. كان يعيش في سكينة دونما أية صلة فعلية بفيلس ورآها في الحلم كما لو أنها قد ماتت ولا يمكنها العودة للحياة، «والآن عندما تسنح الفرصة لأقترب منها تكون هي مركز كل شيء مرة أخرى. على الأرجح تشوش وتربك عملي كذلك. كم كانت

---

(1) **Diaries**, II, P. 93.

(2) Ibid.

(3) Ibid, p. 94.

أحيانًا تبدو لي غريبة خلال هذه الأيام الأخيرة عندما أفكر فيها، دون كل الناس الذين لاقيتهم هي الأشدّ بُعدًا»[1].

«مركز كل شيء» ـ هذا الخطر الفعلي بالنسبة له، لا يمكن أن يسمح لها أن تكون هذا المركز؛ هذا هو سبب عدم مقدرته الزواج بها أو بأية امرأة أخرى. البيت الذي طالما تمنت، هو محورها؛ هو المركز. لا يمكن أن يكون إلا مركز نفسه «المعرّض» للأبد. قابلية جسمه وعقله للتعرّض لعوامل مؤثرة هو الشرط المسبق الفعلي لكتابته. غالبًا ما بدا كما لو كان متلهفًا للحصول على حماية وأمان ضد هذه القابلية للتعرّض، لكن هذه الجهود خادعة: يحتاج عزلته في شكلها المكشوف.

بعد عشرة أيام يصل ردّ من جريت بلوخ. «في حيرة تامة كيف أرد عليه، أفكار من الدناءة لدرجة أني لا أستطيع حتى أن أسجّلها»[2].

ما يُسمّيه أفكارًا دنيئة تتضافر وتتلاحم لتشكل درعًا لا يمكن هذه المرة تقليل مقدار فعاليته. في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر يكتب رسالة طويلة جدًّا لفيلس ويعلن عن وصول تلك الرسالة مسبقًا عن طريق تلغراف. إنه خطاب يبيّن تجردًا مدهشًا. تكاد لا تكون فيه ولا شكوى واحدة؛ بالنسبة لكافكا هو خطاب قوي وهجومي بشكل مثير.

بالطبع لم يظن أنه سيكتب لها ـ في أسكانيش هوف أصبح

(1) **Diaries**, Ibid.

(2) Ibid, p 95.

واضحًا جدًّا أن الخطابات كانت عديمة الجدوى كما كان كذلك كل شيء مكتوب. يشرح لها بطريقة أكثر هدوءًا عمّا فعل في الرسائل السابقة أن عمله هو الذي كان يجب الدفاع عنه ضدها بكل ما أوتي من قوة. يصف حياته الحالية التي يبدو أنه لا بأس بها. يعيش وحيدًا في شقة أخته الكبرى (زوج أخته بعيدًا في الجبهة لذا هي تعيش مع الأهل). يقول إنه وحيد في هذه الغرف الثلاث ولا يلتقي أحدًا ولا حتى أصدقاءه. خلال الشهور الثلاثة الأخيرة ظلّ يشتغل بالكتابة كل يوم. بالتأكيد ليس هو بسعيد لكن يشعر أحيانًا بالرضى كونه يقوم بواجب، كما تسمح به الظروف الحالية.

يقول إن هذا هو نوع الحياة الذي ناضل دائمًا من أجله؛ لكن هذا التصوّر للحياة جعلها دائمًا تكرهه. يعدّد لها كل المناسبات التي أظهرت فيها هذه الكراهية ومنها الانفجار الأخير والحاسم في فندق أسكانيش هوف. كان واجبه الانتباه لعمله وكراهيتها كانت الخطر الأعظم على هذا العمل.

كمثال ماديّ للصعوبات بينهما يستشهد بطريقة مفصّلة بالخلاف حول الحصول على شقة: «كانت رغبتك معقولة تمامًا: شقة عائلية لطيفة وبفرش جميل مثل الشقق التي تسكنها العائلات في المستوى المعيشي لي ولك.. لكن كل فكرتك عن الشقة، ماذا تُبيّن؟ إنها تُبين أنك تنسجمين مع الآخرين وليس معي... هؤلاء الآخرون عندما يتزوجون يكادون أن يكونوا متخمين، والزواج بالنسبة لهم ليس إلا لقمة نهائية عظيمة ولذيذة. ليس الأمر كذلك بالنسبة لي، أنا لست متخمًا. لم أبدأ في عمل يؤمل منه أن يتطوّر من سنة زواج إلى أخرى؛ لا أحتاج مقرًّا دائمًا أنوي في إطار ترتيبه البرجوازي أن أُدير عملًا ـ ليس فقط أنا لا

أحتاج لمثل هذا المقر بل إنه يجلب لي الرعب. أتعطش لعملي...؛ لكن الظروف هنا مناهضة لعملي، لذا لو أعددت منزلًا حسب رغباتك فإن ذلك في ظلّ هذه الظروف سيعني... إني أحاول إبقاء هذه الظروف إلى الأبد، وهذا أسوأ شيء يمكن أن ينزل بي» (440).

في نهاية الرسالة يدافع عن مكاتبته أختها ذاكرًا أنه سيكتب لإرنا اليوم التالي.

بين مواد يومياته للأول من تشرين الثاني/نوفمبر هناك ملاحظة خارجة عن المألوف تمامًا: «طيلة اليوم أنا راضٍ عن نفسي رضى كبيرًا»[1]. لا بدّ وأن يتعلق هذا الرضى الذاتي بالخطاب الطويل الذي على الأرجح أرسله قبل ذلك. استأنف العلاقة مع فيلس لكنه لم يقدّم أية تنازلات. وضعه الآن واضح وصعب وبالرغم من أنه أبدى أحيانًا شكوكًا حول هذا الوضع إلا أنه بقي كذلك لمدة طويلة تالية. في 3 تشرين الثاني/نوفمبر يكتب في مفكرته: «منذ آب/أغسطس، هذا هو اليوم الرابع الذي لم أكتب فيه شيئًا. الخطابات هي السبب؛ سأحاول ألا أكتب أبدًا أو فقط خطابات قصيرة جدًّا»[2].

هكذا الآن رسائله هي التي تربك عمله. هذا مهم جدًّا ومبصّر. مادام مشغولًا بفصل «المحاكمة» عن فيلس فإن من الصعب التوجّه إليها مرة أخرى بانتباه شديد كما في رسالة تشرين الأول/أكتوبر. هذا بالضرورة سيشوّش الرواية؛ كل مرة يفحص

(1) **Diaries**, Ibid.

(2) **Diaries**, p 96.

علاقتهما ينجر إلى الوقت الذي سبق كتابته الرواية. إنه كما لو أن نظرات مثل هذه إلى الوراء تهدد بتآكل جذور الرواية. لذا من الآن فصاعدًا يتجنّب الكتابة لها؛ ولا حتى رسالة واحدة تمّ الاحتفاظ بها من فترة الثلاثة أشهر التالية حتى نهاية كانون الثاني/يناير 1915. يحاول بكل قواه أن يبقي قبضته على عمله؛ لا يستطيع فعل ذلك بشكل دائم، لكنه لا يتخلّى عن المحاولة. في بداية كانون الأول/ديسمبر يقرأ على أصدقائه «في مستعمرة العقاب» وهو ليس راضيًا تمام الرضى. حصيلة اليوم نفسه يكتب الملاحظة: «سأستمر في العمل دونما أي اعتبار. يجب أن يكون العمل ممكنًا بالرغم من عمل المكتب أو قلة النوم»[1].

في 5 كانون الأول/ديسمبر يتلقى رسالة من إرنا بخصوص وضع عائلة بوير الذي ساء كثيرًا منذ وفاة الأب قبل عدة أسابيع. يعتبر كافكا نفسه سبب دمار الأسرة دون أن يشعر بأي ارتباط عاطفي بها: «فقط الخراب هو الذي يخلّف أثرًا. جلبتُ التعاسة لفيلس. أضعفت مقاومة كل من هم في حاجة شديدة لها الآن، أسهمت في وفاة أبيها. دَهْورتُ العلاقة بين فيلس وإرنا. وفي النهاية جلبتُ التعاسة لإرنا أيضًا.... في الواقع عوقبت بما فيه الكفاية بشكل عام. حتى موقفي من العائلة هو عقاب كاف. كذلك عانيت لدرجة أني لم أسترد عافيتي من هذه المعاناة أبدًا....؛ لكن مع ذلك لا تسبب لي علاقتي بهم إلا معاناة محدودة، على الأقل دون معاناة فيلس وإرنا»[2].

(1) Ibid, p 98 - 99.

(2) **Diaries**, p 100.

كما هو متوقع، كان أثر هذا الذنب الشامل الذي يعزيه إلى نفسه كسبب دمار أسرة بوير بكاملها مطمئنًا. لم يكن فيه مجال لتفاصيل سلوكه تجاه فيلس؛ حوى المحيط الكبير لخراب العائلة الشامل كل التفاصيل. لستة أسابيع كاملة حتى 17 كانون الثاني/ يناير لايوجد أي ذكر في الرسائل أو اليوميات لفيلس أو إرنا أو أي عضو آخر في الأسرة التعيسة. في كانون الأول/ ديسمبر يكتب فصلًا «في الكاتدرائية» من «المحاكمة» ويبدأ قطعتين أخريين «مدير مدرسة القرية» The Village Schoolmaster «الخُلد العملاق» The Giant Mole و«وكيل النيابة ـ The Assistant Attorney». في مادة يومياته لآخر يوم في السنة يقوم بجرد عمل العام؛ هذا يتعارض مع عادته التي هي أشبه بما في يوميات هبّل Hebbel: «استغرقت في العمل منذ آب/ أغسطس، بشكل عام ليس العمل ضئيلًا ولا هو من نوعية سيئة»[1]. بعد شيء متعذر تجنبه من الإضافات وتأنيب الذات يضع قائمة بالأعمال الستة التي شغلته. دونما علم بالمسوّدات التي لم أجد طريقًا لها فإنه من الصعوبة تحديد ما كتب من «المحاكمة» في هذه الفترة. بالتأكيد كتب جزءًا كبيرًا منها. على أية حال، هي قائمة مثيرة للإعجاب ولا يتردد المرء في القول إن هذه الأشهر الخمسة الأخيرة من 1914 كانت ثاني أعظم فترة في حياة كافكا ككاتب.

في 23 و24 كانون الثاني/يناير 1915 يتلاقى كافكا وفيلس في بودنباخ Bodenbach التي تقع على الجبهة. قبل ستة أيام فقط من اللقاء هناك ملاحظة عن الخطة في اليوميات:

---

(1) **Diaries**, p 106.

«السبت سأرى فيلس. إذا أحبتني فأنا لا أستحق ذلك... كنت راضيًا جدًّا عن نفسي في المدة الأخيرة وتعلّمت طرقًا مختلفة من الجدال التي أدافع بها عن نفسي وأفرض بها رأيي»[1]. بعد ثلاثة أيام يكتب: «نهاية الكتابة. متى أستأنفها؟ في أية حالة سيئة سألاقي فيلس!... عجزي عن التحضير للمقابلة؛ في الوقت الذي لم أستطع في الأسبوع الماضي التخلص إلا بصعوبة من كل الأفكار التي أثارتها فيّ»[2].

كان أول لقاء له مع فيلس منذ «المحاكمة» وكانت إلى حدّ كبير مصدر إزعاج له. تمّ فصل «المحاكمة» الرواية عنها ولذا تمكن من النظر إليها بتجرّد وانعتاق. لكن الآثار التي خلفتها «المحاكمة» ظهر أنها مستديمة. في رسالة يلاحظ بتحفظ انطباعه عنها لكن في يومياته يطلق لملاحظته العنان:

«كل منا يقول في صمت لنفسه إن الآخر صامد وقاسي الفؤاد. لا أتنازل عن ذرة من مطلبي في حياة ممتازة مهيأة كلية في سبيل عملي؛ لا تكترث هي لأي طلب صامت، تريد المعتاد: منزل مريح، اهتمام من جانبي بالعمل، طعام جيد، النوم في الساعة الحادية عشرة، تدفئة مركزية؛ تضبط بدقة ساعتي التي كانت للثلاثة أشهر الأخيرة متقدمة ساعة ونصف... بمفردنا كنا في الغرفة لساعتين. ليس حولي إلا الملل واليأس. لم نحظ حتى الآن بلحظة واحدة جميلة معًا أتنفّس خلالها بحرية... قرأت لها أيضًا وتلاحقت الجمل في فوضى مقيتة دونما علاقة

(1) Ibid, p 108.

(2) Ibid, p 111.

بالمستمعة التي استلقت على الصُّفة مغمضة العينين وهي تتلقى الجمل في صمت... ما قلته كان صحيحًا وتمّ الاعتراف بصحته: كل يحب الآخر كما هو. لكن لا يعتقد أنه في الإمكان أن يعيش معه كما هو»[1].

تطفّلها كان أكثر إيلامًا عندما يتعلق بساعته. كون أن تضبط ساعته بطريقة مختلفة عن الآخرين يعني له جزءًا ضئيلًا من الحرية. تضبطها حتى الدقيقة الفعلية وهذا عمل طائش يدمّر حريته، هذا التوافق مع وقتها، وقت العمل، المصنع، تبدو كلمة «يحب» في الجملة قبل الأخيرة وكأنها صفعة على الوجه؛ كان يمكن بسهولة أن تكون «يكره».

من الآن فصاعدًا تتغير طبيعة المراسلات. لن ينتكس كافكا أبدًا إلى طريقته القديمة في الكتابة إلى فيلس. يحاذر من ربطها مرة أخرى «بالمحاكمة»؛ ما تبقى من تلك المحاكمة يكاد لا يمت لها بصلة. يقرّر أن يكتب لها كل أسبوعين وحتى هذا القرار لا يحافظ عليه. من كل الرسائل، ثمانون في المائة تأتي من السنتين الأوليين حتى نهاية 1914؛ ولا تحتل رسائل الثلاث سنوات من 1915 ـ 1917 أكثر من عشرين في المائة من الكتاب. بالتأكيد تمّ فقدان بعض الرسائل من الفترة التالية؛ لكن حتى لو لم تفقد فإن الحصص ستكون بشكل أساسي هي نفسها. يصبح الآن كل شيء يكتبه لها إلى حدّ كبير غير منتظم وأقصر؛ يبدأ في استعمال الكروت البريدية ـ تتكون منها معظم مراسلات 1916. كان السبب العملي لاستعمالها هو أن الكروت مرّت

---

(1) Diaries, p 111 - 13.

بسهولة أكثر عبر رقابة البريد بين النمسا وألمانيا خلال الحرب. تغيّرت النغمة: الآن في الغالب فيلس هي التي تشكو من عدم مكاتبته؛ هي الآن التي دائمًا تطلب الود وهو المقاوم. في 1915، سنتان بعد النشر تقرأ حتى ـ معجزة المعجزات ـ «تأملات».

يمكن اعتبار اللقاء في بودنباخ الحدّ الفاصل في العلاقة بين كافكا وفيلس. وقتما أصبح ينظر إليها دون شفقة كما ينظر إلى نفسه فإنه كفّ عن التورط العاجز في تصوّره لها. بعد «المحاكمة» أقصى عن ذهنه كل الأفكار عنها، عارفًا أن رسالة منها قد تعيدها بجلاء إلى ذهنه. لكن كنتيجة للشجاعة التي استجمعها للمجابهة الجديدة معها دخل توازن جديد لقوى العلاقة بينهما. يميل المرء إلى تسمية الفترة الجديدة بفترة التصحيح والتعديل: هو الذي استمدّ السند من كفايتها؛ يحاول الآن أن يجعل منها شخصًا آخر.

* * *

قد يتساءل المرء هل قصة ابتعاد خمس سنوات من الأهمية لدرجة أنها يجب أن تدرس بهذا التفصيل؟ بالتأكيد يمكن أن يذهب الاهتمام بكاتب إلى مدى بعيد. وإذا كانت الوثائق وافرة كما هو الحال هنا فإنه عندئذ . تصعب مقاومة إغراء معرفتها كلها وإدراك ترابطها المنطقي. بالتأكيد تذكي غزارة التوثيق شهية الناقد. يعتبر الكائن البشري نفسه معيار كل شيء لكنه هو ذاته لا يزال غير معروف تمامًا. تطوره في معرفة ذاته لا يزال عند الحدّ الأدنى؛ كل نظرية جديدة تحجب أكثر مما توضح. فقط عن طريق التقصي الفعلي دونما إعاقة لأفراد معينين هو الذي يجعل من

الممكن التقدّم التدريجي. حيث إن هذا هو الوضع القائم لمدة طويلة، وأنير العقول كانت دائمًا على علم بذلك، فإنسان يقدم نفسه للمعرفة تقديمًا تامًّا هو في كل الظروف ضربة حظ لا مثيل لها. لكن في حالة كافكا هناك أكثر من ذلك كما يستطيع أن يشعر بذلك كل من يقترب من حيّزه الخاص. هناك شيء مثير إثارة عظمى بخصوص هذه المحاولة العنيدة من قبل شخص فاقد للسلطة لكن مع ذلك ينصرف عنها في أي شكل قد تظهر فيه. قبل وصف مرحلة العلاقة التالية مع فيلس فإنه يبدو مناسبًا إيضاح كم كان ذهنه محشوًّا بالظاهرة ذاتها التي أصبحت، دون كل الظواهر الأخرى، الأكثر إلحاحًا والأشد فظاعة في عصرنا. من بين كل الكتاب كافكا هو الخبير الأعلم بالسلطة. قاساها في كل أوجهها وصاغ شكلًا لهذه التجربة.

إحدى ثيماته الرئيسة هي الإهانة؛ وهي كذلك الثيمة التي يمكن بسهولة كبيرة ملاحظتها. في وقت مبكر، بدءًا بأول عمل مميز له: «الحكم» The Judgment يمكن إدراك تناوله الموضوع دونما صعوبة. كانت هناك مسألة إذلالين متشابكين، أحدهما يتعلق بالأب والآخر بالابن. يشعر بخطورة تآمرات الابن المفترضة. خلال إلقاء الاتهام يقف الأب على السرير وبالتالي يكون أطول كثيرًا من ابنه، ويحاول أن يقلب ذلّه إلى العكس، أي إهانة الابن: يحكم عليه بالموت غرقًا. يرفض الابن شرعية الحكم لكنه ينفذه وبذا يسلّم بقدر من الذّل يكلفه حياته. تتم بدقة صياغة الإهانة ضمن شروطها الخاصة؛ رغم أن هذا مناف للعقل إلا أن الأثر الذي تتركه يحدّد قوة القصة.

في «المسخ» يتركز الذلّ في الجسد الذي يقاسي ذلك: من

الوهلة الأولى يوجد الشيء المهان في شكل متضام. بدلًا من ابن يعيل ويساعد الأسرة، توجد هناك فجأة حشرة. هذا التحول يعرّضه، دونما فرصة للفرار، للذلّ؛ تشعر أسرة كاملة أنها استفُزّت لتجرّعه الذلّ بحماس. بطريقة متردّدة تبدأ الإهانة. يمر بعض الوقت ليتم انتشارها وتزيد حدّتها. ربما بالتدريج، يشارك كل الأشخاص في تلك الإهانة، بطريقة تكاد تكون عاجزة أو معارضة لرغباتهم. إنهم يختصرون المشهد الذي قدّم في البداية: إنها هي الأسرة التي تحوِّل، دونما رجعة، جريجور سامسا Gregor Samsa إلى حشرة. وما كان حشرة يصبح في المحيط الاجتماعي شخصًا مؤذيًا.

الرواية «أميركا» مليئة بالإهانات لكنها ليست من ذلك النوع غير المعهود أو الذي يتعذّر إبطاله. يتم احتواؤها ضمن مفهوم القارة التي يصبح اسمها عنوان الكتاب. يمكن أن يعطي دلالة على أشياء كثيرة في القصة: إعلاء روزمان Rosmann الأول ومن ثم سقوطه المباغت لاحقًا. تعوض قسوة الحياة في البلد الجديد حركية المجتمع الكبيرة. يمتلىء الشخص المهان دائمًا بآمال مفعمة بالحيوية: يتبع كل سقوط معجزة تُعلي الشخص مرة أخرى. لا شيء يحدث لروزمان له حتمية الشيء النهائي. لذلك هذا الكتاب هو الأفعم بالأمل والأقل إزعاجًا من كتابات كافكا الروائية.

في «المحاكمة» ينبع الذّل من مصدر أسْمَى وأكثر تعقيدًا من الأسرة في «المسخ». وقتما أصبحت المحكمة بارزة للعيان فإنها تبدأ في الانحطاط عن طريق التخاذل: تخفي نفسها في سرية لا يمكن لأي مجهود أن يزيحه. لا تبرهن شدة المجهود من أجل تلك

المحاولة إلَّا عبء المحاولة. كل معلومة تتم متابعتها تبدو عديمة الصلة بالموضوع. تبقى مسألة الذنب أو البراءة التي هي السبب الوحيد لوجود المحكمة مسألة غير جوهرية؛ يتضح أن الذنب ينشأ فقط في المحاولة الدؤوبة للتعرّف على كل شيء عن هذه المحكمة. يتنوع مع ذلك موضوع الإهانة الأساسي وحدوثه في العلاقات الإنسانية حسب الأحداث العرضية المتفرقة. مشهد الرسام تيتورللي Titorelli الذي يبدأ بتهكم البنات الصغار المحيّر، ينتهي في الوقت الذي يظن فيه «ك» أنه على وشك الاختناق في الاستديو الضيق بفحص وشراء لوحات متشابهة. كذلك على «ك» أن يشهد إهانة الآخرين: يلاحظ التاجر بلوك Block راكعًا جانب سرير المحامي ومتحولًا إلى كلب؛ حتى هذا، مثله مثل كل شيء آخر، في النهاية لا جدوى منه. (درسنا سابقًا خاتمة «المحاكمة» ـ أي «خزي» الإعدام العلني.)

تتكرر في كتابات كافكا وفي خطاباته التي يشير فيها إلى أحداث في حياته صورة الكلب بالمعنى الذي حدّده لها. هكذا يكتب لفيلس بخصوص حادثة في ربيع 1914: «عندما كنت أجري خلفك في حديقة تيرجارتن Tiergarten، أنت على وشك الاختفاء تمامًا وأنا على وشك الانبطاح؛ فقط عندما أُذَلّ بهذه الطريقة أستطيع بخنوع أكثر من أي كلب أن أفعل ذلك»(372). في نهاية الفقرة الأولى من «في مستعمرة العقاب»[1] تُختزل صورة

(1) Franz Kafka, **The Penal Colony** (New York: Schocken Books; 1948), p. 191; **In the Penal Settlement** (London: Martin Secker & Warburg, 1949), p. 185.

الرجل المدان وهو في قيوده في الجملة التالية: «على أية حال، بدا الرجل المدان مثل كلب خانع لدرجة أنه كان بالإمكان الاعتقاد بأنه لو أُخلي له العنان لانطلق إلى التلال المجاورة واحتاج فقط إلى الصفير له عندما يكون الإعدام على وشك البدء».

تقدم القلعة The Castle التي تنتمي إلى مرحلة تالية من حياة كافكا بعدًا جديدًا من الرحابة في عمله. يتم التعبير في الرواية عن شعور بالرحابة بدرجة أكبر من وجود منظر طبيعي عبر عالم أكثر كمالًا وأكثر أُهولًا بالسكان. هنا كما في «المحاكمة» السلطة أيضًا مراوغة، إنها تختفي عن العيان: «كْلَم Klamm»، تراتبية الموظفين، القلعة. تستطيع مشاهدتها لكنك لست واثقًا أنك شاهدتها، العلاقة الفعلية بين الناس العاجزين الذين يعيشون عند سفح تلك القلعة والموظفين هي علاقة انتظار الرؤساء. مسألة سبب وجود الرؤساء لم تطرق أبدًا. لكن ما يصدر من أعلى وينتشر بين الناس العاديين هو الإهانة على يد الرؤساء. فعل المقاومة الوحيد ضد هذه السلطة العليا، رفض أماليا Amalia أن تنفذ رغبة الموظف تنتهي بنبذ كل العائلة من مجتمع القرية. يرتبط افتتان الكاتب بالوضعاء الذين ينتظرون دون جدوى؛ يوجه كرهه للسلطة العليا التي تشرف على أكداس من الملفات. العنصر الديني الذي يدّعي كثير من الناس وجوده في «القلعة» قد يكون بالفعل حاضرًا، لكنه عارٍ، توق نهم ومبهم إلى ما هو أسمى. لم يكتب مؤلف أبدًا هجومًا أوضح ضد الخنوع للأسمى، سواء اعتبر المرء الأسمى سلطة أعلى أو مجرد سلطة أرضية. فكل سلطة عليا تصبح هنا متشابهة ويتم إبرازها مقيتة. الإيمان والسلطة

يلتحمان؛ كلاهما يعطي نتائج ملتبسة. خضوع الضحايا الذين لا يخطر ببالهم أو في أحلامهم طريقة بديلة للحياة سيخلق متمردًا صلبًا من شخص لم تمسه ولو من بعيد، تملقات الأيديولوجيات التي فشل معظمها على كل حال.

من البداية وقف كافكا في صف المهانين. فعل ذلك أشخاص كثيرون ومن أجل تحقيق إنجاز تكاتفوا مع زملاء لهم. بسرعة أزال الإحساس بالقوة الناجم شعورهم العميق بالذّل الذي لا نهاية له ـ يستمر الذّل يومًا بعد يوم وساعة بعد ساعة. احتفظ كافكا بكل تجربة كهذه بمعزل عن تجارب مماثلة، لكن أيضًا بعيدًا عن تجارب الآخرين. لم يكن من طبيعته إزالة معاناته عن طريق إشراك آخرين أو محادثتهم عنها. احتفظ بها بنوع من العناد كما لو كانت أعز ممتلكاته. من الممكن القول إن العناد هو الشيء الذي كان فعلًا من طبيعته.

ربما ليس من النادر وجود أشخاص مثل كافكا؛ الأندر هو التطور البطيء بشكل غريب لكل ردود فعله. يتحدث دائمًا عن ذاكرته السيئة لكن في الواقع لا شيء يفلت منه. تظهر حدة ذاكرته في الطريقة التي يصحح فيها ويتمّم ذكريات فيلس غير الدقيقة للسنوات الماضية. مع ذلك، صحيح أنه لا يستطيع دائمًا استعادة ذكرياته بانسياب. عناده يبقيها بعيدًا عن قبضته؛ لا يستطيع مثل الكتاب أن يتلاعب بذكرياته بطريقة تعوزها المسؤولية. يتبع هذا العناد قوانينه الخاصة الصارمة ـ قد يكون بالإمكان القول إنه يساعده في الاقتصاد في قوة مقاومته. إنه يمكّنه من عدم الاستجابة للأوامر مباشرة لكن يجعله يشعر بلدغتها كما لو استجاب، ومن ثم يستخدم اللدغة لتعزيز مقاومته. لكن عندما

يستجيب في النهاية فإن الأوامر ليست هي نفسها لأنه بحلول ذلك الوقت يكون قد انتزعها من سياقها الزمني ودرسها من كل زاوية. أضعفها بالتأمل وبالتالي جرّدها من طبيعتها الخطرة.

يتطلب هذا النهج دراسة أدق ومن ثم التحقق من ذلك عن طريق أمثلة مادية. سأعطي مثالًا واحدًا فقط: مقاومة كافكا العنيدة لأطعمة معينة. يعيش لمدة طويلة مع أسرته لكنه لا يعطي أية تنازلات لعاداتهم السائدة في الأكل التي يعاملها كأوامر يجب أن تدرأ. هكذا يجلس إلى طاولة أسرته في عالم طعامٍ من تكوينه، ما يسبب لوالديه كرهًا عميقًا. لكن درأه الأوامر هنا يمنحه قوة لممارسات مماثلة في أوضاع أخرى وكذلك بالنسبة لأشخاص آخرين. خلال صراعه ضد أفكار فيلس القاتلة عن الزواج لعب تركيزه على هذه الخصال دورًا أساسيًا. ضربة بضربة يحمي موقعه ضد الامتثال للعرف السائد الذي تتوقعه منه. لكن مباشرة بعد فسخ الخطبة يسمح لنفسه حتى بتناول اللحم. في رسالة لأصدقائه في براغ يصف من المصيف البلطيقي الذي ذهب إليه بعد «محاكمة» برلين إسرافه في أكل اللحم دونما عيف. حتى بعد شهور يخبر فيلس بارتياح كيف أنه وأختها إرنا ذهبا لأكل لحم بعد فترة وجيزة من فسخ الخطبة. يذكر أنه لو كانت فيلس حاضرة لطلب لها كراشماندل krachmandel[1]. هكذا عندما لم يعد تحت أي ضغط من فيلس فإنه ينفذ الأوامر التي لم تعد تنبىء عن خضوع.

(1) «كراشماندل» هيْ لوز طريّ القشرة؛ لكن اصطلاحًا تعني «Krach» «شجار».

يجب اعتبار صمت كافكا وسريته حتى بالنسبة لأصدقائه ممارسات في العناد. لا يدرك دائمًا لماذا هو ملتزم بالصمت. لكن عندما تُلقي شخصياته خطبها التي عادة ما تكون طلقة كما في «المحاكمة» وبالأخص «القلعة» فإن بوابات الفيضان يتم فتحها: يكتشف عندئذ اللغة. نادرًا ما يسمح له عناده بالكلام لكنه هنا تحت قناع الشخصية يَهبُه هذا العناد طلاقة الكلام. ليست هذه شبيهة باعترافات شخصيات دستيوفسكي ـ هناك درجة حرارة مختلفة، أقل سخونة. علاوة، لا شيء هنا مبهم؛ بل إنه عزف سلس لآلة محدّدة بوضوح وهي مؤهلة لأصوات معينة فقط ـ طلاقة الفنان البارع شديد الحساسية لكنه واضح.

تاريخ مقاومته لأبيه التي لا يجب معالجتها بالأسلوب المبتذل المعتاد هو أيضًا تاريخ بداية عناده. يبدو أن كثيرًا مما قيل عن هذه العلاقة خاطىء بشكل تام. كان ينبغي أن تساعد وجهة نظر كافكا المتميزة في التحليل النفسي النقاد في أن يخرجوا شخصه على الأقل من ذلك النطاق الضيق للتحليل النفسي. لم يكن صراعه مع أبيه إلا صراعًا ضد سلطة أعلى. كره أسرته ككل؛ أبوه كان الجزء الأكثر سلطة لهذه الأسرة. عندما لاح خطر إقامة عائلة له كان لصراعه مع فيلس الدافع نفسه والطبيعة نفسها.

من المفيد مرة أخرى تذكر صمت كافكا في أسكانيش هوف، المثال الأوضح لعناده. لا يتجاوب كما كان متوقعًا من أي شخص آخر؛ لا ينتقم باتهامات مضادة. ونحن مقدرين مدى حساسيته فإنه يكاد لا يمكن الشك في استيعابه واستبطانه لكل شيء قيل ضدّه. وما قيل له لم «يُكْبَت» repressed ـ مصطلح كان

يمكن في حالة أخرى أن يكون له صلة بالموضوع. ما قام به هو الاحتفاظ بما قيل والاستمرار في الإحساس به؛ دائمًا يفكّر فيه، بل يضغط غالبًا على ذهنه لدرجة أن العملية يجب أن ينظر إليها كنقيض للكبت. ما يتم إحباطه هو كل ردّ فعل خارجي قد يفضح التأثير الداخلي. كل ما يحتفظ به بهذه الطريقة حاد مثل السكين؛ لكن لا الضغينة ولا الكراهية، لا الغضب ولا المقت يمكن أبدًا أن تجبره على إساءة استعمال السكين. يبقى ما يحتفظ به بمعزل عن العاطفة التي هي بناء مستقلّ. لكن بينما يظل هذا بعيدًا عن تأثير العاطفة فإنه يصرف كافكا عن نطاق السلطة.

هنا يتوجب الاعتذار عن الاستعمال الساذج للكلمة «سلطة». لكن كافكا يستعملها دونما تردد رغم كل التباساتها. بسبب تجنبه كلمات «كبيرة»، كلمات مشحونة، ليس لكافكا «عمل بلاغيّ» واحد. كنتيجة لذلك فإنه لن يصبح أبدًا مقروءًا أقل؛ إفراغ وإعادة ملء الكلمات المستمر، العملية التي تسبب الشيخوخة في كل الأدب تقريبًا لم تؤثر أبدًا عليه، لكنه لم يتجنب الكلمتين: « Macht» («Power») قوة، سلطة، والصفة منها «Machtig» («Powerful»)؛ كلاهما من الكلمات التي لا يتجنبها والتي يصعب تجنبها. بالتأكيد هناك فائدة في مجهود تتبع وتقصي كل الفقرات التي تظهر فيها الكلمة في كتاباته وخطاباته.

يبيّن بوضوح وشجاعة لا مثيل لهما ليس فقط الكلمة لكن أيضًا الشيء في كل تعقيداته اللانهائية. فحيث إنه يخشى السلطة في كل أشكالها وحيث إن هدف حياته الحقيقي هو الابتعاد عنها في أي صيغة تظهر فيها فإنه يكتشفها ويحدّدها، يسمّيها ويخلق منها أشكالًا في كل حالة حيث يقبلها الآخرون على أنها شيء معتاد.

في ملاحظة توجد في كتاب «عزيزي الأب» Dearest Father يرسم الطبيعة الحيوانية للسلطة، صورة كونية مذهلة في ثمانية سطور: «كنت أعزل في مجابهة الشبح، بهدوء جلس إلى الطاولة يراقب سطحها. سرت حوله في دوائر، شاعرًا أنه يخنقني. وحولي كان هناك ثالث يمشي شاعرًا أني أخنقه. وحول هذا الثالث سار رابع ويشعر أنه يخنقه. وهكذا تواترت الدوائر حتى مدارات النجوم وأبعد من ذلك. الكل شَعرَ الإمساك بالعنق»(1).

ينتشر التهديد والخنق من المركز الأعمق حيث ينشأ كقوة خنق جاذبة تدعم وتغذي كل دائرة متركزة «بعيدًا حتى مدارات الكواكب وأبعد من ذلك». يصبح انسجام الكواكب الفيثاغورثي نظام كواكب للعنف تكون فيه الجاذبية البشرية طاغية، كل فرد يمثّل كوكبًا منعزلًا.

يشعر بتهديد الأسنان بشدة كبيرة لدرجة أن الأسنان منفصلة - وليس صف الأسنان - هي التي تمسكه في قبضتها: «كان يومًا عاديًا؛ كشر أنيابه لي؛ كنت أيضًا في قبضة الأسنان ولم أستطع التخلص من قبضتها؛ لم أعرف كيف أمسكت بي لأنها لم تكن مطبقة؛ لم أرها في شكل صفين من طاقم الأسنان لكن مجرد آحاد هنا وآحاد هناك. رغبت في الإمساك بها والقفز فوقها ولكنني فشلت»(2).

في رسالة لفيلس يسك العبارة المروّعة «رعب الوقوف

---

(1) Franz Kafka, **Dearest Father** (New York: Schocken Books; 1954), p. 295; **Wedding Preparations in the Country** (London: Martin Secker & Warburg, 1954), p. 324.

(2) **Dearest Father**, p 294 - 59; p. 323.

انتصابًا». يفسر حلمًا كانت قد ذكرته له؛ التفسير كان واضحًا لدرجة أن المرء يستطيع إدراك فحوى الحلم دونما صعوبة كبيرة: «لو لم تكوني مستلقية على الأرض بين الحيوانات لما استطعت النظر إلى السماء والنجوم ولما استطعت الانعتاق. ربما لم يكن في مقدورك التغلب على رعب الوقوف منتصبة. لدي الشعور نفسه؛ حلمك حلم مشترك حلمتيه لاثنينا» (447). يجب على المرء أن يستلقي مع الوحوش حتى يطلق سراحه ويمكنه الخلاص. الوقوف يعني سلطة الإنسان على الوحوش، لكن بالضبط في هذا الموقف الواضح يكون الإنسان معرّضًا، مفضوحًا وعرضة. فهذه السلطة هي أيضًا ذنب وفقط على الأرض مستلقيًا بين الحيوانات يمكن للمرء أن يرى النجوم التي تطلق سراحه من هذه السلطة المرعبة للإنسان.

يوضح المقطع الأكثر صخبًا في عمل كافكا ذنب الإنسان هذا بالنسبة للحيوانات. تظهر الفقرة التالية في «مسودة قديمة» من «طبيب ريفي» A Country Doctor: «قبل مدة قصيرة ظن الجزار أن يوفر على نفسه مشقة الذبح وهكذا أحضر صبيحة يوم ثورًا حيًا. لكنه لن يجرؤ على تكرار هذا العمل. أستلقي لساعة كاملة على الأرض في مؤخرة مشغلي ورأسي ملفَّعة بكل الملابس والسجاد والمخدات في حوزتي، فقط لأتجنب سماع خوار ذلك الثور الذي كان الرُّحَّل يتقافزون عليه من كل جانب ويجزّون بأسنانهم قطعًا من لحمه الحي. مر وقت طويل قبل أن أخاطر بالخروج؛ استلقوا منهكين حول بقايا الجثة مثل سكارى حول برميل نبيذ»[1].

(1) **The Penal Colony**, p. 147; In **The Penal Settlement**, p. 143.

«مرّ وقت طويل. . .» هل في الإمكان القول إن الراوي كان ينصرف عمّا لم يمكن تحمّله وإنه وجد الهدوء مرة أخرى؟ أو بعد خوار مثل هذا هل يمكن وجود هدوء؟ إنه موقف كافكا؛ لكن كل ملابس، سجاد، مخدات العالم لم تُسكت إلى الأبد الخوار في أذنيه. لو ابتعد عنه أبدًا فإنه فقط لإعادة سماعه مرة أخرى لأن الخوار لم يتوقف. بالتأكيد الكلمة Withdraw «يبتعد» «ينصرف» كلمة غير دقيقة عند تطبيقها على كافكا. في حالته تعني أنه بحث عن الهدوء، الصمت حتى يتسنى له فقط سماع الخوار - الذي لم يكن أقل من الخوف.

كما كان مجابهًا من كل جانب بالسلطة فإن عناده وفرّ له بعض الأحيان مخرجًا مؤقتًا. لكن ذلك لم يكن كافيًا وعندما يخونه عناده فإنه قد مرّن نفسه على التلاشي؛ هنا يبرز الجانب الإيجابي لنحوله البدني رغم أنه كما نعلم كره ذلك. عن طريق الاختزال البدني ينتزع السلطة من نفسه وبالتالي يقل دوره فيها؛ يوجّه هذا التقشف أيضًا ضد السلطة. كذلك يظهر الولع بالتلاشي في علاقته باسمه. في اثنتين من رواياته، «المحاكمة» و«القلعة» يختزل اسمه إلى الحرف الأول «ك» «K». في رسالة لفيلس يصغّر اسمه بالتدريج حتى يختفي نهائيًا في الأخير.

الأكثر إدهاشًا هي طريقة أخرى يمارسها بمهارة فائقة لا يجاريه فيها إلا الصينيون: التحوّل إلى شيء صغير. حيث إنه يمقت العنف لكن لم يجد في نفسه القدرة على مقاومته فإنه يباعد المسافة بينه وبين الكيان الأقوى عن طريق تصغير نفسه تدريجيًا إلى ذلك الكيان. من خلال هذا الانكماش يحصل على ميزتين: تجنّب التهديد عن طريق جعل نفسه صغيرًا جدًّا مقابل العنف،

ويعفي نفسه من وسائل العنف الاستثنائية؛ الحيوانات الصغيرة التي يرغب تحويل نفسه إليها كانت عديمة الضرر.

يلقي خطاب سابق إلى «ماكس برود» ضوءًا ساطعًا على أصل هذا الاستعداد النادر. يرجع الخطاب إلى سنة 1904 عندما كان عمر كافكا إحدى وعشرين سنة؛ أسمّيه «خطاب الخُلد» وأقتبس منه ما يفي بفهم تحول كافكا إلى شيء صغير. لكن قبل ذلك وكتمهيد سأقتبس قولًا من رسالة كتبت السنة الأسبق لزميل دراسة هو «أوسكار بولاك» Oskar Pollak: «يجب أن يكرّم الخلد وبني جنسه لكن دون جعله القديس الراعي». هذا ليس قولًا مأثورًا؛ لكن يدخل الخُلد الصورة لأول مرة. تبرز مباشرة نغمة خاصة في العبارة «بني جنسه»؛ ولن تفوت ملاحظة أن التحذير ضد جعل الخلد قديسًا راعيًا يلمح إلى أهميته اللاحقة. هنا فقرة من الخطاب لماكس: «نحفر داخل أنفسنا مثل الخُلد ونظهر من قبونا مسودِّينَ ومخمليي الشعر وأقدامنا الحمراء الصغيرة المسكينة ممدودة طلبًا للعطف الرقيق».

«بينما كنت أتنزه صادف كلبي خُلدًا يقطع الطريق. استمر في القفز عليه ولم يتركه وشأنه فهو كلب صغير وخجول. في البداية تسلّيت وأحببت بشكل خاص اهتياج الخُلد وهو يبحث عن حفرة في السطح القاسي للطريق بشكل يائس وعديم الجدوى. ثم فجأة عندما ضربه الكلب مرة أخرى بكفه الممتد صرخ ك س، ك س سن Ks, Kss بهذا الشكل تمامًا. عندئذ فكّرت ـ كلا لم أفكر في شيء. فقط كنت في حالة هذيان لأن في

ذلك اليوم تدلّى رأسي بثقل لدرجة أني لاحظت بدهشة في المساء أن ذقني قد نبتت في صدري»[1].

لنلاحظ أن الكلب المطارد كان كلب كافكا؛ كان هو مالكه. بالنسبة للخلد الذي يبحث في فزع قاتل في الطريق الصلب عن جحر يختبىء فيه ليس هناك وجود لشخص كافكا؛ يخاف الخلد فقط من الكلب وحواسّه مستنفرة فقط للأخير. لكن كافكا السامق فوقهما بوقفته المنتصبة وطوله وملكيته للكلب الذي لن يتمكن أبدًا من تهديده هو ببساطة يضحك من حركات الخلد اليائسة وغير الفعالة. لا يدرك الخلد أن في إمكانه طلب العون منه؛ لم يتعلّم الدعاء وليس في استطاعته إلا الصرخات الواهنة. إنها الأصوات الوحيدة التي تصل إلى الآلهة، الكائن الأعظم، سمت السلطة وفي هذه الحالة حتى الرب يكون موجودًا. يصرخ الخلد Ks, Kss ويقوم المشاهد وهو يستمع إلى هذا الصراخ بتحويل نفسه إلى خُلد. دونما خوف من كلبه الذي هو عبد له يشعر تمامًا مثل شعور الخلد.

ليست الصرخة المفاجئة هي الوسيلة الوحيدة للتحوّل إلى شيء صغير. وسيلة أخرى هي «الأقدام الحمراء الصغيرة المسكينة» مرفوعة مثل الأيادي التي تستجدي العطف. في الجزء المؤرخ في آب/أغسطس 1914 من «مذكرات سكة حديد كالدا» هناك محاولة مشابهة في التقرّب من جرذ وهو يُشرف على الموت عبر «يديه» الصغيرتين.

(1) Briefe, p. 29.

«أما بالنسبة للجرذان التي هاجمت أحيانًا مؤني فإن سكيني الطويلة كانت كافية للتعامل معهم. خلال الأيام الأولى عندما كنت بحماسة أستوعب كل شيء سفّدت أحد هذه الجرذان في رأس سكيني وأمسكت به أمامي في مستوى نظري مقابل الجدار. لا يمكنك أن ترى الحيوانات الصغيرة بوضوح إلا إذا أمسكت بها أمامك في مستوى النظر؛ إذا انحنيت للوصول إليها على الأرض لتراها هناك فإنك تكوّن فكرة ناقصة ومزيفة عنها. الميزة اللافتة لهذه الجرذان كانت أكفّها ـ كبيرة، إلى حدّ ما مجوّفة ولكنها حادّة عند الأطراف. مهيأة تمامًا للحفر. وهو معلّق على الجدار أمامي في ألم مبرح مدّ بصلابة يديه، فيما بدا وكأنها طريقة غير طبيعية؛ كانتا مثل يدين صغيرتين تحاولان التقرب إليك»[1].

يجب مشاهدة الحيوانات الصغيرة في مستوى النظر حتى يمكن رؤيتها بدقة. هذا معادل لرفعها لمنزلة مساوية. الانحناء إلى الأرض، الذي هو نوع من التنازل، يعطي فكرة ناقصة ومزيّفة عنها. هذا الرفع للحيوانات الصغيرة إلى مستوى النظر يجعل المرء يفكّر في ميل كافكا إلى تكبير هذه المخلوقات: الحشرة في «المسخ» والمخلوق الشبيه بالخلد في «الجحر» The Burrow. من خلال التناول القريب للحيوان وتكبيره الناجم عن ذلك يصبح التحول إلى شيء صغير عملية قابلة للتصديق وملموسة وطيّعة.

لا يوجد اهتمام شبيه باهتمام كافكا بالحيوانات الصغيرة جدًّا، خاصة الحشرات، في أي مكان سوى في حياة وأدب

(1) Diaries, II, P. 87.

الصينيين. من عهود مبكّرة اعتبر الصينيون الصرصار من بين الحيوانات المفضّلة. خلال فترة حكم سلالة سنج Sung كان من المعتاد للناس أن يحتفظوا بصراصير يتم تدريبها وتحريضها لمقاتلة بعضها البعض. على سبيل المثال، احتفظ الناس بها داخل قشرة الجوز التي يتم تجهيزها لتلبّي كل حاجات الصراصير. يغذّي مالك صرصار مشهور ذبابًا بدم من ذراعه وعندما يتخم الذباب يقوم بفرمه ويقدّم هذا الطحين للصرصار بغرض إثارة حماسه للقتال. تمّ اختراع فرش وتقنيات خاصة لتحريض المتحاربين، ثم يتفرج الناس على الصراصير وهي تتصارع وهم متقرفصين أو منبطحين على بطونهم. يتم تكريم المخلوق الصغير الذي برز بشجاعة فائقة بإعطائه اسم قائد من قواد الصين، وفي اعتقاد الناس أن روح القائد استقرت الآن في جسم الصرصار. حسب البوذية اعتبر معظم الناس أن الإيمان بتناسخ الأرواح أمر طبيعي تمامًا، لذا لم تكن فكرة كهذه عويصة الفهم. غطّى البحث عن الصراصير المناسبة من أجل البلاط الإمبراطوري كل البلاد وكانت تدفع مبالغ باهظة للعيّنات الواعدة. تقول قصة: إنه في الوقت الذي كانت فيه إمبراطورية سنج تُجتاح من قبل المنغوليين كان القائد الأعلى للقوات المسلحة منبطحًا على بطنه يتفرّج على صرصار وهو يقاتل. وهو في هذه الحالة تلقى نبأ تطويق العدو للعاصمة ووضعها في خطر عظيم. لم يكن في مقدوره إبعاد نفسه عن الصراصير: كان عليه أولًا أن يرى من المنتصر على هذه الساحة. سقطت العاصمة وكانت تلك نهاية إمبراطورية سنج.

في فترة أسبق، خلال حقبة التانج Tang كان يُحتفظ بالصراصير في أقفاص صغيرة بسبب صريرها. لكن سواء رفعها

الناس ليراقبوها عن قرب وبانتباه بينما كانت تصرّ أو حملوها دائمًا لقيمتها تحت قمصانهم، ومن ثم أخرجوها كيما يتمكنوا من العناية برفق بمساكنها، في كلتا الحالتين لا بدّ وأن يكون الناس قد رفعوها إلى مستوى النظر كما نصح بذلك كافكا. نظر إليها الناس بمبدأ المساواة وعندما كان من المفترض أن تتصارع الصراصير جثم الناس أو انبطحوا على الأرض. كانت أرواح الصراصير ما زالت هي أرواح قادة معروفين ونتيجة صراعها تبدو أكثر أهمية من مصير إمبراطورية عظيمة.

هناك كثير من القصص الصينية التي تلعب فيها الحيوانات الصغيرة دورًا؛ تتكرر بشكل خاص قصص تتقبل فيها الصراصير والنمل والنحل إنسانًا بينها وتعامله معاملة الإنسان للإنسان. لا توضح خطابات كافكا إذا كان قرأ كتاب «قصص الحب والأشباح الصينية» «Chinese Ghost and Love Stories» لمحرّره مارتن بوبر Martin Buber الذي تظهر فيه عدة قصص من هذا النوع. (يذكر هذا الكتاب بعبارات إطراء؛ ولزيادة كدره أنه في فترة غيرته من الكتّاب الآخرين اشترت فيلس نسخة من هذا الكتاب لنفسها.) لكن على أية حال، بفضل بعض قصصه ينتمي كافكا إلى سجلّات الأدب الصيني. منذ القرن الثامن عشر غالبًا ما اختار مؤلفون أوروبيون ثيمات صينية. لكن الكاتب الوحيد الذي في جوهره صيني هو كافكا(*) في ملاحظة كان يمكن أن

(*) لدعم وجهة النظر هذه أود أن أذكر أن أرثر ويلي Arthur Waley الذي لا ندَّ لتذوقه في حقل الأدب الصيني شاركني هذا الرأي وناقشه بتفصيل في مناسبات كثيرة. بالتأكيد لهذا السبب نفسه كان كافكا هو كاتب النثر الألماني الوحيد الذي قرأ له ويلي باهتمام وحماس؛ كان على نفس الدرجة من المعرفة بعمله كما كان =

يكون مصدرها نصّ طاويّ لخص ما عنى «الصغر» له: «احتمالان: جعل المرء نفسه صغيرة إلى درجة متناهية أو أن يكون فعلًا كذلك. الأخيرة هي الكمال، أي الجمود، الأولى هي البداية أي النشاط»[1].

* * *

أدرك أني لم أقم إلا بتناول جزء يسير مما يمكن قوله عن السلطة والتحوّل عند كافكا. تتطلب معالجة مفصلة أو تامة كتابًا أكبر؛ هنا يجب متابعة قصة علاقته بفيلس التي تبقى ثلاث سنوات على نهايتها.

من بين جميع السنوات العجاف في هذه العلاقة كانت سنة 1915 الأعجف. كان رمزها هو بودنباخ: حالما تحدّث كافكا أو كتب كان هناك أثرها لفترة طويلة. أولًا وكنتيجة للمجابهة تلقت فيلس بعض الرسائل الإضافية لكنها أصبحت أقل انتظامًا. تذمّر فيها كافكا من عجزه عن كتابة أي شيء وعن - والآن وصل إلى نهاية حيله مرة أخرى - ضوضاء الغرف الجديدة التي انتقل إليها. وعن هذه الأخيرة يعطي تفاصيل كثيرة، وهذه الفقرات هي الأكثر روعة. يجد أن حياته كموظّف تزداد تعقيدًا؛ ضمن لومه الذي لا يستثني منه فيلس يوجه أعنفه ضد رغبتها في العيش في براغ معه.

= بعمل بوشوي Po Chu-i والرواية البوذية «القرد» وقد ترجم العملين. خلال أحاديثنا كان هناك دائمًا كلام عن طاوية كافكا «الطبيعية». لكن مع تقديرنا المناسب لكل الجوانب الصينية في عمل كافكا ناقشنا أيضًا نوعه الخاص من الطقوسية. بالنسبة لويلي كان أفضل مثالين «الرفض» The Refusal و«جدار الصين العظيم» The Creat Wall of China؛ كذلك تمّ ذكر أعمال أخرى.

(1) **Dearest Father**, p. 45; **Wedding Preparations in the Country**, p. 49.

بالنسبة له براغ لا تطاق وللهروب منها يفكّر في الالتحاق بالجيش. يكتب بأن أسوأ شقاء ابتلته به الحرب هو عدم المشاركة فيها؛ لكن ليس من المستحيل أن يأتي دوره: في الحال سيتم تجنيده وعلى فيلس أن تتمنى له النجاح في دخول الجيش كما يرغب. لكن لا يتحقق ذلك رغم المحاولات المتكررة ويبقى في عمله في براغ «يائس مثل جرذ سجين»(462).

تبعث إليه برواية فلوبير «سلامبو» Salammbo ومعه إهداء حزين جدًّا. يشعر بالكآبة عند قراءته ولمرة يحاول كتابة خطاب مواساة: «هذه ليست نهاية كل شيء، ليست هناك عتمة، لا برد... اسمعي يا فيلس، الشيء الوحيد الذي حدث هو أن خطاباتي أصبحت أقل انتظامًا ومختلفة. ماذا كانت نتيجة تلك الخطابات الأكثر انتظامًا واختلافًا؟ تعلمين ذلك. يجب أن نبدأ من جديد»(453).

ربما يكون «إهداء» سلامبو هو الذي دفعه إلى لقائها وجريت بلوخ في سويسرا البوهيمية في عيد العنصرة. بالنسبة لهما هذه هي اللحظة السعيدة الوحيدة في السنة. ربما أسهم وجود جريت بلوخ في نجاح هذين اليومين. ربما بهت بعض الرعب القاسي للمحاكمة التي أخضعته لها هاتان المرأتان. كانت فيلس تعاني من ألم في الأسنان و«سُمح له بإحضار الإسبرين» وأن يُبيّن عاطفته «وجهًا لوجه في المطارحة»(464). كتب لها بعد عودته لبراغ مباشرة أنه كان عليها أن تراه وهو يبحث بين زهور الليلك عن «ذكرياتها وغرفتها» (455) طيلة رحلة العودة. لم يحمل في العادة أي شيء في رحلة من هذا القبيل حيث إنه لا يحب الزهور. وفي اليوم التالي يذكر أنه يخشى أنه قد بقي هناك مدة

أطول من اللازم. ربما كان يومان أكثر من المحتمل. بعد يوم واحد «من السهل المغادرة، لكن يخلق يومان روابط من الصعب قطعها»(455).

بعد أسابيع ليست بالكثيرة تمّ أيضًا لقاء آخر في كارلزباد Karlsbad في حزيران/ يونيو. هذه المرة كان اللقاء قصيرًا وسار كل شيء على غير ما يرام. لا يعرف بدقة أي شيء عن هذا اللقاء لكن هناك ذكر لكارلزباد في رسالة لاحقة و«الرحلة المرعبة حقًّا إلى أوسّج Aussig» (457). لا بدّ أنها كانت فترة سيئة تمامًا خاصة وأنها تلت مباشرة أيامًا سعيدة في عيد العنصرة وذلك لأن كارلزباد تظهر في قائمته لأكثر اللحظات إيلامًا إلى جانب تيرجارتن وأسكانيش هوف.

من الآن فصاعدًا بالكاد يكتب لها، ويصدّ شكواها بصمته: يقول لنفسه «لماذا لا تكتب؟ لماذا تعذب فيلس؟ كونك تعذّبها واضح تمامًا من كروتها البريدية. تَعِد بالكتابة ولا تكتب. ترسل تلغرافًا (رسالة في الطريق) لكن ليست هناك رسالة في الطريق. لا تتم كتابة الرسالة إلا يومين بعد ذلك. كاستثناء وبشكل نادر قد يسمح لفتاة التصرّف بهذه الطريقة» (456). العكس واضح: يفعل معها بالضبط مثل ما فعلت معه قبل سنوات وذِكره أن الفتيات يسمح لهن بالتصرّف بهذه الطريقة لا يدل أبدًا على عدم إدراكه لهذا الوضع المعاكس.

من آب/ أغسطس وحتى كانون الأول/ ديسمبر لا تتلقى منه شيئًا؛ وعندما يكتب لاحقًا بين فينة وأخرى كان ذلك دائمًا بغرض معارضته اقتراحها بضرورة لقائهما. «من اللطيف أن نتلاقى؛ مع ذلك يجب ألّا نفعل. مرة أخرى سيكون لقاؤنا وقتيًّا

وقد عانينا ما فيه الكفاية من الذرائع المؤقتة» (459). «لكن مع أخذ كل شيء في الاعتبار من الأفضل ألّا تأتي» (460). «ما دمت غير متفرغ لا أرغب أن أُرى ولا أريد رؤيتك» (463). «أحذرك كما أحذر نفسي من اللقاء؛ فكّري جديًّا في اللقاءات السابقة وستكفين عن المطالبة بها. . . . . لذا لا لقاء» (464).

توجد الفقرة الأخيرة المقتبسة من رسالة مؤرخة في نيسان/ أبريل 1916 ومن سياقها تبدو أشد قسوة. باستثناء فاصل عيد العنصرة 1915، شهدت الثمانية عشر شهرًا الماضية تصلبًا في موقفه الدفاعي ولا يستطيع المرء التنبؤ بأي احتمال للتغيير. لكن في شهر نيسان/ أبريل نفسه يظهر اسم مارينباد Marienbad لأول مرة في كرت بريدي ويتكرّر بعد ذلك بانتظام. يخطط لإجازة ويرغب أن يقضي في مارينباد ثلاثة أسابيع هادئة. يزداد الآن انتظام الكروت. في منتصف أيار/ مايو يذهب فعلًا إلى مارينباد في رحلة عمل ومن هناك يكتب لها حالًا رسالة طويلة إلى حدّ ما وكرتًا بريديًّا:

«مارينباد جميلة بشكل لا يصدق. كان يجب عليّ أن أتبع غريزتي التي قالت بأن الأسمن هم أيضًا الأكثر حكمة. في النهاية يمكن للمرء أن يتبع حِمْيَة في أي مكان، لا داعي للثناء على الينابيع المعدنية، لكن فقط هنا يمكن للمرء أن يتجول في غابات كهذه. الآن يتعزّز الجمال فعلًا بالهدوء والعزلة كما هو يتعزّز أيضًا بالتقبّل المتلهّف لكل شيء حيّ أو جامد؛ وتكاد لا تتأثر بالطقس الملبّد والعاصف. أتخيل لو كنت صينيًّا وعلى وشك الذهاب للمنزل (فعلًا أنا صيني وأنا ذاهب للمنزل) فإني سأتيقّن من العودة إلى هنا حالًا مهما علا الثمن، كم ستحبّينها!» (468).

اقتبست الكرت في معظمه لأن أغلب خصال ونزعات كافكا تجتمع هنا في حيّز محدود جدًّا. حبه للغابات وميله إلى السكون والفراغ، مسألة النحافة، واحترامه الخرافي للأشخاص السّمان. السكون والفراغ، الطقس الملبّد والعاصف، وتجاوب كل شيء حيّ وجامد ـ كل هذه تذكّر بالطاويّة والمنظر الصيني الريفي. وهكذا توجد هنا ـ حسب علمي ـ الفقرة الوحيدة التي يقول فيها «فعلًا أنا صيني». الجملة الأخيرة «كم ستحبينها!» هي أولى محاولاته الفعلية منذ سنوات في التقرّب أكثر من فيلس وكنتيجة لذلك أتت أيام مارينباد السعيدة.

تستمر مفاوضاتهما ـ يصعب تسميتها باسم آخر ـ للإجازة معًا شهرًا آخر وتفعم المراسلات بينهما بحيوية استثنائية. رغبة في إسعاده تقترح فيلس حتى الذهاب إلى مصحّة. ربما بقي في ذاكرتها طرف من مصحة ريڤا حيث كانت صحبة «الفتاة السويسرية» بركة عليه. لكنه لا يحب هذا الاقتراح؛ المصحّة تقريبًا «مكتب آخر، في خدمة الجسد» (471). يفضل فندقًا. من 3 تموز/يوليو وحتى 13 تموز/يوليو يقضي كافكا وفيلس عشرة أيام معًا في مارينباد.

ترك مكتب براغ في ترتيب مثالي؛ كان سعيدًا لمغادرته، لو كانت مغادرته للأبد لكان «مستعدًّا لفرك كل درجة في السلّم على ركبتيه من العليّة إلى القبو حتى يظهر اعترافه بالجميل للسماح له بالمغادرة»[1]. في مارينباد قابلته فيلس في المحطة. قضى الليلة الأولى في غرفة كريهة تطلّ على فناء. لكنه انتقل اليوم التالي إلى

(1) **Briefe**, p. 137.

«غرفة فائقة الجمال»(1) في فندق بالمورال. سكن في غرفة مجاورة لغرفة فيلس، كل منهما لديه مفتاح للباب الموصل بين الغرفتين. كان الصداع والأرق شديدين؛ في الأيام الأولى وخاصة في الليالي شعر بالعذاب واليأس. توضح المواد في مفكرته سوء الوضع. في 8 تموز/يوليو ذهب مع فيلس في رحلة إلى تيبل Tepl في طقس تعيس لكن تحول ما بعد الظهيرة إلى «ساطع وجميل بشكل رائع»(2)، وكانت تلك نقطة التحول. تلت ذلك خمسة أيام سعيدة معها؛ يود المرء أن يقول: إن يومًا واحدًا كان لكل سنة من سنواتهم الخمس. كتب في مفكرته: «لم أكن أبدًا في علاقة اتصال مع امرأة باستثناء تلك المرّة في زوخمانتل Zuckmantel. ومرة أخرى مع الفتاة السويسرية في ريڤا. الأولى كانت امرأة وكنت جاهلًا؛ الثانية طفلة وكنت مضطربًا جدًّا. مع فيلس عرفت فقط الوصل في الرسائل، لكن بطريقة بشرية لم يتم ذلك إلا في اليومين الأخريين. الوضوح مازال مفقودًا وتبقى الشكوك. لكنه جميل، تحديق عينيها الهادئتين. انفراج عمقها الأنثوي»(3).

في الليلة السابقة لمغادرة فيلس بدأ رسالة طويلة لماكس برود ولم ينهها إلا بعدما رحلت: «لكن الآن رأيت نظرة الثقة في

(1) Ibid. **Briefe.**

(2) Ibid, p 138.

(3) الفقرة من «مع فيلس عرفت ...» إلى النهاية لا تظهر في Tagebücher الألمانية ولا في Diaries الإنكليزية. المصدر هو مخطوطة اليوميات كما اقتبسها Klaus Wagenbach في كتابه:

Franz Kafka, in Selbstzeugnissen und Bilddokumenten (Hamburg: Ernst Rowohlt Verlag, 1964), p. 101.

عيني امرأة ولم أستطع أن أكون غير متجاوب.. . ليس من حقي أن أقاومها، بل حتى أكثر من ذلك حيث إني سأتسبب طواعية في وجود تلك الثقة لو لم تحدث بنفسها وذلك ببساطة لأتلقى تلك النظرة مرة أخرى. فعلًا لم أكن أعرفها؛ بالإضافة إلى شكوك أخرى كان يعيقني تمامًا في السابق الخوف من حقيقة هذه المرأة كاتبة الخطابات؛ عندما خَطَت في اتجاهي عبر الغرفة الواسعة لتتلقى قُبلة الخطبة هزّتني قشعريرة؛ كانت زيارة الخطوبة إلى والديّ مصدر عذاب لي في كل مرحلة من مراحلها؛ ما روّعني أكثر كان وجودي وحيدًا مع فيلس قبل الزواج. تغيّرت الأمور الآن؛ إنها على ما يرام. باختصار، اتفاقنا هو أن نتزوج مباشرة بعد نهاية الحرب وأن نستأجر غرفتين أو ثلاثًا في ضاحية لبرلين؛ كل يقوم بتوفير احتياجاته المنزلية. ستستمر فيلس في العمل كما كانت عليه حتى الآن وأنا، حسنًا.. . لا أستطيع أن أبتّ بعد. بالرغم من ذلك الوضع هادىء ومستقر وبالتالي يحوي إمكانات حقيقية.. .. بعد ذلك الصباح في «تبل» عشت أيامًا جميلة ومجنّحة لم أكن أصدق أنها ممكنة بالنسبة لي. بالطبع تخلل ذلك بعض اللحظات القاتمة لكن الغلبة كانت للأوقات الجميلة والمشرقة»[1].

في يوم الإجازة الأخير أخذ فيلس إلى فرانزنباد Franzenbad حيث زارا أمه وإحدى أختيه. عادا في المساء إلى «مارينباد» التي اقترح قضاء عشرة أيام إضافية فيها لكنه وجد أن غرفته في الفندق التي كانت هادئة جدًّا قد أعطيت لنزلاء جدد

(1) Briefe, pp. 139 - 40.

وتوجّب عليه الانتقال إلى غرفة فيلس التي كانت أكثر ضجة. لذا الكروت البريدية الأولى بعد مغادرتهما مليئة مرة أخرى بالشكوى من الضوضاء والصداع والنوم غير المنتظم. لكن بعد خمسة أيام تعوّد على غرفتها وحسب تجاوبه البطيء المعتاد تعمّ كروته البريدية رقة وسعادة يمسّان شغاف قلب القارىء، حتى لو لم يكن هناك من سبب سوى ندرة ذلك. يجب اعتباره من حسن الطالع أنه استمر بعد مغادرة فيلس في زيارة الأماكن المعروفة لكل منهما. قام بالنزهات نفسها في غابات مارينباد، أكل الوجبات المقرّرة التي أمّل أنها تزيد من وزنه في المطاعم نفسها. عندما يأتي المساء يجلس في الشرفة نفسها على المنضدة نفسها ويكتب لها في ضوء القنديل الذي كان مألوفًا لديهما.

كتب كل شيء على كروت بريد؛ أرسل لها كل يوم كرتًا وفي بعض الأحيان كرتين. كان الأول الفاتحة «عزيزتي المسكينة» فهو ما زال يشعر بمرض؛ كلما يدعوها «مسكينة» فإنه يعني نفسه، هو الشخص المسكين. «أكتب مستخدمًا قلمك، مدادك. أنام في سريرك، وأجلس في شرفتك ـ هذا يكون مقبولًا إلا أن عبر الباب المفرد أستطيع سماع الضوضاء في الممر وضجة الأزواج في كل من الجانبين» (473). هنا ما زالت الضوضاء تحجب كل شيء آخر ـ وإلا كان من الصعب عزف نغمة نشاز كهذه بقوله: «هذا يكون مقبولًا» كتابعة لما سبقها. يختتم الكرت بجملة: «أنا في طريقي إلى ديانا هوف Dianahof، لأفكّر فيك خلال تحديقي في صحن الزبدة»(474).

في كرت لاحق يخبرها بأنه رغم الأرق والصداع فإنه يزداد سمنة ويرسل لها «قائمة طعام الأمس» بكاملها. هنا توجد

الوجبات مع مواعيدها اليومية موضحة بدقة على الجانب. ضمنها هناك الذي نتوقعه منه: حليب، عسل، زبدة كرز .... إلخ، لكن في الظهر يبرز ـ يا للعجب! ـ «لحم بقري، سبانخ، بطاطا» (476).

هكذا تخلّى فعلًا عن بعض مقاومته لها، قائمة الطعام عنصر مهم في علاقة الحب هذه. يزداد «سمنة»، «يتناول لحمًا»؛ حيث إنه عدا ذلك يأكل كل الأشياء التي استحسنها مسبقًا فإن التسوية بينهما تكمن في كميات هذه الأشياء وفي «اللحم». لذا خلال أيام مارينباد تقاربا أيضًا وتصالحا عبر الاتفاق على الطعام. رتابة الحياة في المنتجع المعدني تهدىء كافكا وتزيل عنه تخوفه من فيلس. بعد مغادرتهما يستمر في أكل الأطباق نفسها وفي الأماكن نفسها ويخبرها بذلك كتصريح بالحب.

لكنه يقدم لها الثناء أيضًا بطريقة أقل حميمية وأكثر تمجيدًا: «تصوري، لم نكن حتى على علم بالزائر البارز لمارينباد الذي هو موضع ثقة كثير من الناس: ربَّاني من «بلز» Belz، ولا شك أنه في الوقت الراهن الممثل الرئيس للخاسيدية Hasidism. قضى هنا ثلاثة أسابيع. للمرة الأولى شاركته البارحة وعشرة من أتباعه مشيتهم المسائية... وأنت، يا أبرز زائرة لمارينباد بالنسبة لي، كيف حالك؟ لا أخبار بعد، أرضي نفسي بما تخبرني به المشيات المعتادة ـ اليوم، مثلًا، نزهة العبوس والأسرار»(475).

في مناسبة بعد عدم تلقي رسائل منها ليومين يكتب: «تمّ إفساد كل منا بوجودنا معًا فخطوتان إلى الشمال وتتوفر الأخبار عند الطلب» (477). في كرت آخر في اليوم نفسه يقول: «عزيزتي

ـ هل أنا أبالغ في الكتابة مرة أخرى، كما في الأيام السابقة؟ للتبرير: أجلس في شرفتك، على جانبك من المنضدة، إنه كما لو أن جانبي المنضدة كانا كفتي ميزان؛ كما لو أن التوازن الذي توطد في ليالينا الجميلة قد تمّ اختلاله وأنا وحيد في كفة الميزان لا بدّ وأن أسقط. أسقط لأنك بعيدة جدًّا. لذا أكتب . . . . السكون هنا في الحاضر يكاد يصل إلى درجة الكمال التي أرغبها. يتوهج ضوء الليل على منضدة الشرفة وبسبب البرد هجر النزلاء كل الشرفات الأخرى، لا صوت إلا الهمهمة المستمرة من شارع قيصر شتراسه Kaiserstrasse التي لا تزعجني»(477).

في هذه اللحظة تبدد عنه الخوف. جلس في جانبها من المنضدة كما لو كان هو هي لكن الميزان هبط لأنها كانت بعيدة، وهو الآن يكتب لها. إنه يكاد يكون السكون الذي يرغبه، منضدته هي الوحيدة التي كان يشتعل فيها ضوء الليل ولم يكن عدم الاكتراث هو وقود الضوء. كل الشرفات الأخرى كانت باردة وخالية. الهمهمة المستمرة في شارع قيصر شتراسه لم تزعجه.

في وقت عندما لم يكن فعلًا يعرف فيلس قال: إنه في علاقاته مع الناس شعوره الأساسي هو الخوف واللامبالاة. فقدت تلك المقولة فعاليتها الآن. عندما وُهب حرية ضوء الليل شعر كذلك بالحب. «يقال على المرء أن يترقب، فلا بدّ وأن يكون هناك أحد ما».

* * *

كل حياة مضحكة لو عرفها المرء بقدر كاف. لو عرفها بشكل أفضل من ذلك فإنها تكون شيئًا خطيرًا ومرعبًا. بعد

عودته إلى براغ بدأ كافكا مشروعًا يمكن اعتباره يقع ضمن أي من هذين التصنيفين. صورة فيلس لديه قبل مارينباد كانت لا تطاق وكرّس نفسه للمجهود الهرقلي لتبديلها. لمدة طويلة الآن منذ بودنباخ رآها بوضوح واعترض بقسوة على الخصال التي وجدها مزعجة فيها. لكنه فعل ذلك بتقطع ودونما أمل لأنه لم يكن هناك شيء في مقدوره فعله لتغييرها. في مارينباد تحدثا عن بيت الشعب اليهودي في برلين حيث تتم العناية باللاجئين كبارًا وصغارًا. وأظهرت فيلس بتلقائية الرغبة في العمل هناك في وقت فراغها. تحدث عن المكان دونما توقع أو غرض في باله وسُر عندما «عالجتْ فكرة البيت باستقلال تام وبطريقة مرضية» (500). من الآن فصاعدًا صارت لديه آمال من أجلها؛ وبالعناد الذي حلّ في حالته محل القوة، حثّها في كل رسالة لبرلين على التحقيق العملي لخطتها في الاتصال بالبيت. لثلاثة أو أربعة أشهر حتى بداية تشرين الثاني/نوفمبر، كتب لها كل يوم تقريبًا وكان بيت الشعب أهم موضوع على الإطلاق إن لم يكن الوحيد في خطاباته.

قامت فيلس باستفسارات مترددة عن البيت؛ خشيت احتمال السماح فقط للطلاب بالعمل هناك. في ردّه لها لم يستطع فهم توصلها لهذا الرأي: «لا داعي للقول إن الطلاب من (الجنسين) ـ وهم عادة الأقل أنانية، الأكثر تصميمًا، الأكثر ضجرًا والأكثر قسوة، الأكثر حدة والأكثر استقلالًا، والأكثر بعد نظر من جميع الناس ـ هم الذين بدأوا هذه المغامرة وأداروها، لكن كل شخص حيّ له الحق نفسه في المشاركة» (481). (من الصعوبة وجود فقرة أخرى عند كافكا يكون فيها هذا العدد من صيغ التفضيل.) سيكون تقديم الخدمة للبيت «أهم مائة مرة من

المسرح أو كلابند Klabund أو أي شيء آخر»(481). بالإضافة، سيتضمّن ذلك درجة عالية من المصلحة الذاتية. لن يقدِّم المرء المساعدة بل يطلب العون؛ من هذه الجهود يتم جني عسل أكثر من عسل كل الزهور في غابة مارينباد؛ إنه في نهم شديد لأخبار مشاركتها. أما بالنسبة للصهيونية التي لم تكن على معرفة كافية بها فإنه يجب ألَّا ينالها أي خوف. من خلال بيت الشعب ستتحقّق اهتمامات أخرى لها، وكان أكثر حرصًا على ما قد تؤدي إليه هذه الاهتمامات.

بينما كان لا يزال في مارينباد قرأ كتابًا عن حياة الكونتسه زنزندورف Countess Zinzendorf؛ أعجب بنظرتها للحياة و«مجهودها الذي يكاد يكون فوق طاقة البشر» في إدارة كنيسة الإخوة المورافيين Moravian Brethren في هرنهت Herrnhut (517). يشير إليها دائمًا وفي كل نصائحه في هذا الوقت تشغل باله كنموذج لفيلس، وهذا مطلب مستحيل التحقيق. «عند وصولها إلى شقتها الجديدة في درزدن Drezden التي كانت الجدة زنزندورف قد أثّثتها للزوج والزوجة الصغيرين فيما كان يعتبر الأسلوب الفاره، انفجرت الكونتسه ذات الاثنين وعشرين عامًا باكية» (484). تتبع ذلك كلمات ورع من الكونتسه الصغيرة عن براءتها من هذه الأشياء التافهة وتطلب غفران الله في أن يبقي روحها مخلصة وأن يحوّل بصرها عن كل حماقات هذا العالم. يضيف كافكا؛ «تنقش في حجر وتعلق في مكان فوق محل الأثاث».

بعد برهة وجيزة ما بدأ كرغبة في التأثير على فيلس يصبح حملة منظّمة، ومن الواضح الهدف من وراء ذلك. يريد أن

يخلّصها من خصالها البرجوازية، أو إذا جاز التعبير أن ينقل الأثاث من كيانها، هذا الأثاث الذي في رأيه يجسّد الجانب الكريه والمروّع في الزواج البرجوازي. يجب أن تعرف مدى الاهتمام البسيط الذي يجب إيلاؤه للعمل المكتبي وللعائلة، واعتبارهما ملازمين للأنانية؛ يقارن ذلك بالنشاط المتواضع في المساعدة في ملجأ للأطفال. لكن الغطرسة الكهنوتية التي عن طريقها يقودها عنوة هي شيء لم يكن المرء يعتقد أنه قادر عليه. يطلب معلومات عن كل خطوة تقرّبها من بيت الشعب ثم، عندما تمّ قبولها، عن كل تفصيل في حياتها هناك. هناك رسالة يضع فيها عشرين سؤالًا عن عملها؛ نهمه يزداد ويصبح شرهًا للأخبار عن هذا العمل. يحضها، ينتقدها ويساعد في كتابة كلمة كانت ستلقيها في البيت ويقرأ ويدرس لهذا الغرض كتاب ڤلهلم فورستر Jugendlehre: Wilhelm Forster. يفتش عن كتب الأطفال في «البيت» بل حتى يرسل لها من براغ عدة أعمال حُرّرت لصغار يعتقد أنها مناسبة جدًّا، ويستمر في الإشارة إليها في رسائله بدقة تعادل التحذلق ويطلب صورًا لفيلس بين أطفالها الذين يرغبون في معرفتهم عن بعد بالملاحظة الدقيقة. يغمر فيلس بالمديح عندما يكون راضيًا عنها ويبدو هذا المديح غزيرًا لدرجة أنها لا بدّ وأن ظنّته علامة حب ـ ويكيل هذا المديح كلما تبعت تعليماته. بالتدريج يصبح ما يتوقعه منها نوعًا من الخضوع والطاعة. تعديل صورتها، تغيير شخصيتها، التي بدونها لا يستطيع تصوّر المعيشة معها تتحوّل في المستقبل إلى تحكّم فيها.

هكذا يشارك في نشاطها رغم أنه يفتقد، كما يقول في إحدى الرسائل، إلى التّفاني الضروري؛ تنوب هي عنه فيما تقوم به. على العكس هو يحتاج إلى عزلة أكثر فأكثر؛ يجد هذه العزلة

في مشيات الأحد في ضواحي براغ في البداية في صحبة أخته «أوتلا» Ottla التي يعجب بها كما لو كانت خطيبته. يلتقي بهما أحد معارفه من الشركة ويعتقد أن أوتلا خطيبته ولا يتردد كافكا في ذكر ذلك لفيلس.

لديه الآن نوع جديد من المتعة لوقته الفارغ: الاستلقاء على العشب. «بينما كنت مستلقيًا ذات يوم على حافة القناة (لكن هذه السنة العشب طويل وغليظ حتى في القناة) مرّ شخص مشهور إلى حدّ ما لدي معاملات رسمية معه أحيانًا في مركبة في طريقه إلى حفل أكثر شهرة. مددت جسدي وشعرت بسعادة. . . . كوني وضيع المنزلة الاجتماعية» (482).

في مشية قرب براغ مع «أوتلا» يكتشف مكانين جميلين، كلاهما «في سكون جنة عدن بعد طرد الإنسان» (497). يذهب فيما بعد في مشيات دونما رفيق: «هل تعرفين البهجة من كوني وحيدًا، المشي وحيدًا، الاستلقاء في الشمس وحيدًا؟ . . . . هل حصل وأن مشيت مسافة طويلة لوحدك؟ تفترض المقدرة على الاستمتاع بها قدرًا كبيرًا من التعاسة السابقة ومثلها من البهجة الماضية. كصبي كنت وحيدًا معظم الأوقات، لكن ذلك كان نتيجة لضغط الظروف ونادرًا ما كان عن اختيار. لكن الآن أندفع لأكون وحيدًا مثلما تندفع الأنهار نحو البحر» (510). في مناسبة أخرى يكتب: «مشيت مسافة طويلة، خمس ساعات تقريبًا، وحيدًا، لكن ليس وحيدًا بما فيه الكفاية، في أودية مهجورة، لكن ليست مهجورة بالقدر الكافي» (523).

خلال هذا الوقت يهيىء نفسه ذهنيًّا لحياة في الريف كان سيشارك فيها «أوتلا» في زوراو Zürau بعد سنة؛ في الوقت

الراهن يحاول توثيق علاقته بمجتمع بيت الشعب اليهودي في برلين. خلال الأسبوع يعيش حياة موظف وهذا يملؤه بشكل متزايد بالاشمئزاز لدرجة أنه ما زال يفكّر في الهروب منه عن طريق الالتحاق بالجيش: كجندي على الأقل لا يستطيع الإنسان أن يدلّل نفسه. لكن فيلس هي خلاصه ـ بسبب نشاطاتها في بيت الشعب.

لكنه يذكر في معظم الأحيان كتابته أيضًا في رسائل هذه الفترة. حيث إنها فترة يعتقد أنه غير قادر فيها على إنجاز أي عمل جديد فإنه يرسل أخبارًا عن مصير قصص سابقة وعن منشورات ومراجعات. في أيلول/سبتمبر يعلن عن دعوته للقراءة في ميونخ. يجب القراءة بصوت عال وكان له هوى في الذهاب؛ يود أن تكون فيلس هناك: يرفض اقتراحها بلقاء في برلين أو براغ. تُبعده عن برلين ذكريات الأحداث عندما أصبحا خطيبين و«المحاكمة» التي بالطبع نادرًا ما يذكرها في رسائله ـ انقضت على ذلك سنتان. لكن عندما يعيد اسم مكان في برلين ذلك الماضي إلى الذاكرة فإنه لا يتردد في جعل الآخرين يعرفون أن الجروح لم تندمل من ذلك الوقت بالنسبة له. ما يحول دون لقاء في برلين هو أسرته: من المحتّم أن تجلس فيلس على منضدة أسرته واندراجها سيعزّز هيمنة الأسرة، تلك السلطة العليا التي عارضها باستمرار بكل ما أوتي من قوة. في إبقائه فيلس بعيدة عن براغ يتصرف كسياسي يحاول تجنب قيام تحالف بين عدوين محتملين. هكذا يصرّ بعناد على خطته في لقاء في ميونخ. لمدة شهرين يتبادلان الرسائل بشأن الموضوع. يعرف أن القراءة ستكون مصدر سند له؛ تمنحه فيلس كذلك دعمًا حيث إنها الآن مهتمة وطيّعة. في ميونخ يتكاتف المصدران كل منهما يعزّز الآخر.

مع ذلك لا يجعل هذا طريقة توصّله إلى قرار عملية أقل غرابة. مرة أخرى هناك التردّد الحائر المعتاد: الرحلة مرجّحة لكنها ليست بعد مؤكّدة. هناك مهدّدات خارجية قد تفشل كل الخطط. بعد شهرين من المناقشة يكتب ولم يتبق على موعد القراءة إلا خمسة أيام: «رحلتي تترجّح أكثر فأكثر كل يوم. على أية حال، سأرسل لك الأربعاء أو الخميس برقية بالكلمات الجميلة: «ذاهبون» أو الكلمة المحزنة: «لا» (533). يوم الجمعة يغادر.

تبرز فرادة طريقة تفكير كافكا التي لا يمكن استئصالها في عدم مقدرته على التعلّم من الأخطاء. فشل مضروب في فشل لا يعادل في حالته نجاحًا. تبقى الصعوبات نفسها دائمًا كما لو أنها تبيّن أنها بطبيعتها لا تذلّل. من بين اعتبارات وحسابات لا حصر لها يستثنى بشكل منظّم ما يمكن أن يتسبّب في إنهائها نهاية سعيدة. يبقى احتمال الفشل كنوع من القانون الأسمى يضمن الهروب عند كل ظرف طارىء. يميل المرء إلى تسمية هذا حرية الضعيف الذي يبحث عن الخلاص في الهزيمة. فرادته الحقيقية، صلته الخاصة بالسلطة، يتم التعبير عنها في خطر النصر. كل الحسابات تنشأ وتُختم بالعجز.

هكذا رغم التجربة المكتسبة من اللقاءات السابقة، تلك اللقاءات التي كانت قصيرة وغير مرضية، فإنه يراهن بإنجازاته في هذه الشهور الأربعة ـ السيطرة على فيلس عن طريق بيت الشعب في برلين ـ على نجاح عصر سبت وحيد في ميونخ. كل شيء في ميونخ كان غير مألوف: الأماكن، الناس، إجراءات القراءة يوم الجمعة بعد رحلة يوم كامل في القطار والتكملة يوم السبت. لكنه

خاطر بإنجازاته كما لو أنها احتفظت بإمكان خفي للحرية. تشاجرا في «محل فطائر شنيع» (534)؛ لا تتوفر تفاصيل دقيقة عن ذلك. يبدو أن فيلس التي سايرته لفترة طويلة تمردت. على الأرجح إن ثورانها المفاجىء لم يتميز باللطف. أنّبته لأنانيته وكان تأنيبًا قديمًا. لم يستطع تقبله ببساطة. جرحته لكنها، كما هو نفسه كتب فيما بعد، كانت محقّة. لكن عظم أنانيته، وهي بحق ضخمة، يتبدى في عناده، وهذا العناد لا يسمح إلا بالتأنيب الذي يوجهه هو لنفسه: «شعوري بالذنب عميق بدرجة كافية في أي وقت، لا يحتاج لتغذية من الخارج؛ بنيتي، من ناحية أخرى، ليست قوية بدرجة كافية تمكّنها من ازدراد هذا النوع من الطعام في أحيان كثيرة جدًّا» (534).

هكذا انتهى الازدهار الثاني لعلاقتهما. لمدة أربعة أشهر تماسك هذا الأساس الهش جدًّا للتفاهم. يمكن مقارنة هذه الأربعة أشهر بالفترة الأولى من أيلول/ سبتمبر إلى كانون الأول/ ديسمبر 1912؛ في كل منهما كان هناك الأمل والسند اللذان استمدهما كافكا من فيلس. لكن في الفترة الأولى كانت هناك نشوة الكتابة بينما في الثانية كانت هناك مسألة العمل على إحداث تغيير في شخصية فيلس وتعديلها حسب آرائه. جلبت خيبة الأمل بعد الفترة الأولى نهاية لكتابته. بعد الفترة الثانية أدّى النفور إلى العكس: قاده إلى الكتابة.

عاد من ميونخ بروح متجددة. كانت القراءة هناك «فشل فخيم» (536)؛ قرأ «في مستعمرة العقاب». «وصلت مستعملًا قصتي كمطيّة للرحلة إلى مدينة لم تعن لي شيئًا سوى أنها مقر لقاء وذكرى بائسة من عهد الشباب؛ قرأت هناك قصتي القذرة

بعدم اكتراث تام؛ لا يمكن لفتحة موقد خال أن يكون أكثر برودة وكنت بعد ذلك مع أشخاص لا أعرفهم وهذا حدث نادر بالنسبة لي في هذا المكان»[1]. لم تكن مراجعات النقاد مشجعة وأيّد ذلك موافقًا على أنه كان من الصفاقة التي لا تصدق أن يَقْرأَ في العلن وهو لم يكتب أي شيء قبل ذلك (هكذا يقول، مبالغًا) لمدة سنتين. (لكن في ميونخ اكتشف أيضًا أن رلكه Rilke قدّر عمله تقديرًا عاليًا، خاصة «الوقّاد» التي فضّلها على «المسخ» و«في مستعمرة العقاب».) لكن بالضبط هذه الصفاقة ـ الظهور العلني، حقيقة أن الأحكام خاصة السلبية منها قد أعلنت، الهزيمة وفخامة الهزيمة بين أشخاص غير معروفين ـ كل هذا زوّد كافكا بجناحين للتحليق. لو أخذ في الاعتبار خصامه مع فيلس الذي مكّنه داخليًا أن يبعد نفسه عنها ـ تلك المسافة التي بدونها لا يستطيع الكتابة ـ فإن روحه المتجدّدة عند عودته يمكن فهمها.

حالًا يشرع في البحث عن شقة ويكون هذه المرة حسن الحظ: أعدّت له «أوتلا» غرفة للكتابة في كوخ في ممر الخيمائيين Alchemists Lane الكمستز لين كانت قد استأجرته لنفسها. كانت الدنيا هادئة هنا بالقدر الكافي وحالًا استقر. رفض رؤية فيلس في عيد الميلاد وللمرة الأولى في أربع سنوات هي التي تشكو من الصداع ـ تبنّت ما كان يخصّه. ذكر بطريقة تكاد تكون ازدرائية البيت الذي طالما نوقش. الآن يجب أن يؤدّي البيت مهمته: أن يجذب اهتمام فيلس ويعطيها الدعم. لكن ليس أكثر من ذلك.

(1) **Briefe**, p 153.

قضى وقتًا سعيدًا في منزل «أوتلّا» الأمور أفضل من أي وقت آخر خلال السنتين الماضيتين. «شعور غريب، قَفْل المنزل والبقاء وحيدًا في ليلة مضاءة بالنجوم في هذا الزقاق» (537). «المعيشة هناك جميلة، وجميل التجوّل عودة إلى المنزل عند منتصف الليل، هابطًا درج القلعة القديمة، إلى المدينة؟»(538). في هذا الكوخ كتب «طبيب ريفي» و«المحامي الجديد» «The New Advocate» و«فوق في الرواق» «Up in the Gallery» و«ابن آوى والعرب» «Jackals and Arabs» و«القرية التالية» «The Next Village» التي ضمّت فيما بعد في كتاب «طبيب ريفي». كتب هنا «الجسر» «The Bridge»، «الصياد جراكس» «The Hunter Gracchus» و«راكب الدلو» «The Bucket Rider». خصال تجمع كل هذه القصص: الرحابة، التحوّل (لم تعد إلى شيء صغير)، والحركة.

* * *

لا يمكن معرفة الكثير عن المرحلة الأخيرة في العلاقة من خطابات كافكا. يشير الخطاب الذي كتب عند منقلب السنة 1916 ـ 1917 ضمنيًّا إلى أنهما كانا يخطّطان لإقامة منزل لهما بعد الحرب. يصف الخطاب بتفصيل و(كما كان كافكا سيكتب لاحقًا بغرض تقريع الذات) «بحساب» ميزات وعيوب شقة في شوربورن پالاس Schörborn Palace، خمس نقاط مؤيدة وست معارضة. في هذه الشقة التي ستكون جاهزة لاستعمالها يمكن لفيلس أن تسترد عافيتها في شهرين أو ثلاثة على الأقل. بالطبع عليها أن تستغني عن المطبخ والحمام. لا يمكن القول إن وجودها أخذ في الاعتبار بطريقة مقْنِعَة؛ تظهر مرة واحدة خلال تعداد النقاط الإحدى عشرة المؤيّدة والمعارضة. لكن مع ذلك لها

وجود، وربما أهم من ذلك، هو الطلب منها تقليب الأمر بعناية وتقديم النصح.

ليست هناك ولا رسالة واحدة أو كرت بريدي واحد متبقٍّ من الأشهر الثمانية الأولى لعام 1917؛ لكنه لا بدّ بالتأكيد وأن كتب لها خلال هذه الفترة. تصل الرسالة الأولى في أيلول/ سبتمبر. في شباط/ فبراير انتقل كافكا إلى شقة شوربورن پالاس. هنا كتب قصصًا إضافية لمجموعة «الطبيب الريفي» وكذلك نصوصًا عدة لم يتم نشرها خلال حياته مثل «جدار الصين العظيم». كان راضيًا عن هذه الفترة، مؤكدًا ذلك في رسالة تموز/ يوليو 1917 إلى كرت ڤولف Kurt Wolff.

ما حدث بين كافكا وفيلس في تموز/ يوليو 1917 لا يمكن معرفته إلا من مصادر أخرى؛ وفقًا لذلك لا يمكن وصفه بشكل دقيق كما تمّ في الماضي. تموز/ يوليو هذا هو شهر الخطبة الرسمية الثانية. لم تنته الحرب بأية حال ويبدو أنه تمّ تقديم موعد الخطبة الأصلية إلى حدّ ما. قدمت فيلس إلى براغ؛ أحيانًا يفترض أنها سكنت في شوربورن پالاس، لكن هناك أسباب للشك في ذلك. قام كافكا وفيلس بزيارات خطبة رسمية إلى بعض الأصدقاء. لاحظ «ماكس برود» الطبيعة المصطنعة والسخيفة إلى حدّ ما لتلك الزيارات عندما قاما بزيارة منزله. مرة أخرى كان هناك بحث عن أثاث وشقة. ربما لم ترض فيلس بشوربورن پالاس وأصرّت كبداية على وجود حمام ومطبخ. حملت في محفظتها مبلغًا كبيرًا جدًّا قدره تسعمائة كرونة. بخصوص فقدان هذه المحفظة المؤقّت، يكتب كافكا بطريقة رسمية عن «خطبته». ربما يكون قد أرهق نفسه بهذه الزيارات والألقاب الرسمية من

هذا النوع. سبق وأن قيل إن ليس من طبيعته التعلّم من التجارب السابقة. أو ربما دونما علم بذلك، كان يستثمر في ضغوط من النوع القديم وذلك حتى يجبر نفسه على الهروب. في النصف الثاني من تموز/يوليو سافر هو وفيلس لزيارة أختها في أراد Arad في هنغاريا. لا بدّ وأن كان هناك شجار حاد بينهما خلال هذه الرحلة. ربما كان من الضروري حصول مجابهة مع أحد أفراد أسرتها للتسبّب في انفصال. ترك فيلس في بودابست وعاد بمفرده إلى براغ عن طريق ڤيينا. في مذكراته يلاحظ رودولف فكس Rudolf Fuchs، الذي قابله كافكا في ذلك الوقت، أن كافكا تحدث كما لو أن انفصالًا أكيدًا قد حدث أو أنه كان في الحسبان. كتب كافكا رسالتين إلى فيلس من براغ لكنهما فقدتا؛ من المرجح، أنه جعل فيهما الأمر واضحًا تمامًا لها.

في الواقع كان مصممًا على الانفصال بينهما لكن حيث إنه لم يستجمع القوة لفعل ذلك منفردًا تبع ذلك، بعد يومين من الخطاب الثاني من خطابي براغ هذين وخلال ليلة آب/أغسطس 9 ـ 10، 1917، نزيف. يعطي وصف متأخر كثيرًا الانطباع بأنه بالغ إلى حدّ ما في مدة هذا النّزيف. لكن لا شك بأنه في وقت متأخر من الليل وبشكل مفاجىء فقد كمية كبيرة من الدم من رئتيه وأن هذا الحدث المتفجّر ـ حدث شاعري، يمكن القول، ترافقه الصورة المثالية «جرح دموي» ـ كان له عواقب خطيرة جدًّا بالنسبة له. رغم أنه شعر بارتياح فيما بعد إلا أنه استشار طبيبه الدكتور موهلستاين Mühlstein الذي كان لحجمه البدين أثر مهدىء عليه (499). لا نعرف كيف تجاوب الطبيب لكن وصف كافكا كان كافيًا لإدخال الرعب في قلب «برود». مرّت أسابيع عدة قبل أن يتمكّن «برود» من إقناع كافكا باستشارة مختص

فكافكا كان من البداية في يقين من السبب الفعلي لمرضه؛ ولا حتّى الأمل في الحرية، التي كانت ذات أهمية قصوى بالنسبة له، جعل من السهل عليه الاستسلام للأبد للعلم الطبّي الرسمي الذي ارتاب فيه بعناد. حَدّدَت زيارته للمختص في 4 أيلول/سبتمبر بداية فترة جديدة في حياته. أطلق القرار من هذه الجهة الموثوقة، التي وجد نفسه الآن مضطرًّا إلى الاعتراف بها، سراحه من فيلس ومن تخوفه من الزواج ومن المهنة التي كرهها. لكنه أوثقه إلى الأبد إلى المرض الذي سيموت منه والذي كان في هذه الفترة ليس بالخطير جدًّا.

في الواقع لا تبدو العبارات الأولى عن نتائج المختص الموجودة في مادة مفكرة «برود» للتاريخ نفسه خطيرة جدًّا. تذكر نزلة التهابات في القناة التنفسية Catarrh في الطرف الأقصى من إحدى الرئتين وخطورة من السل. زالت الحمّى عند كافكا تمامًا، لكن الإجراءات الطبية غير المألوفة أدّت إلى تبلور خطّة هروب وهذه ضرورية للغاية لحياة كافكا النفسية. كان القرار هو وجوب الذهاب والعيش في الريف ـ لمدة ثلاثة أشهر كبداية. تمّ إعداد المكان ـ يصعب قول ذلك بطريقة أخرى ـ قبل ذلك بوقت طويل: مزرعة «أوتلا» في «زوراو». لم تعرف فيلس شيئًا من هذه الأمور لمدة أربعة أسابيع. فقط في 9 أيلول/سبتمبر، ثلاثة أيام قبل مغادرته لزوراو وعندما تمّ الترتيب بدقة لكل مرحلة من مراحل الانتقال، كتب كافكا أخيرًا إليها رسالة جادة جدًّا. ربما يكون قد أخبرها بصراحة في رسالته عن عزمه الأكيد على الانفصال عنها إلى الأبد. لكنها وبعد عدم الرد على خطابي آب/أغسطس، كتبت له في الوقت الحاضر مرة أخرى بطريقة استرضائية كما لو أن لم تكن هناك عقبة عظيمة بينهما، وتلقّى

رسالتها الأخوية في وقت بالغ الإزعاج بالنسبة له، في 5 أيلول/ سبتمبر، اليوم الذي تلا آخر مراجعاته مع المختص. يكتب لبرود: «اليوم وصلت رسالة من فيلس، هادئة وأخويّة ودونما أي امتعاض. تمامًا كما أراها في أعز أحلامي. من الصعب الآن الكتابة لها»[1].

لكنه يكتب لها في 9 أيلول/سبتمبر ويخبرها في اختصار درامي عن الأحداث المتعلقة برئتيه. هناك حديث طويل عن الدم وبالتأكيد عن السل. لصالحه لم يمنح تقاعدًا لكن بقي موظفًا على رأس العمل وسيتمتع على الأقل بإجازة ثلاثة أشهر. لا داعي لإخبار أبويه شيئًا في الوقت الراهن. الملاحظة الوحيدة التي ربما وجدتها فيلس في المدى البعيد مهدّدة هي نهاية الرسالة. يكتب: «عزيزتي فيلس المسكينة»، وهذه المرّة الكلمة «المسكينة» المألوفة من مراسلاته تبدو ـ وهو الآن يكتب عن ألمه ـ وكأنها للمرّة الأولى تشير إليها وليس له. «إنها ليست السكين التي تطعن فقط المقدّمة لكن تلك التي تنعطف وتطعن الخلف أيضًا»(544).

في ملحق الرسالة يضيف أنه يشعر بتحسّن منذ بداية النزيف. هذا صحيح؛ لكن ربما بذكره ذلك رغب في منعها من المجيء في ذعر مفاجيء بغرض زيارته.

من 12 أيلول/سبتمبر تبدأ فترة «زوراو». يبدو الخطاب الأول إلى «برود» وكأنه رسالة من عالم آخر. في اليوم الأول لم يتهيأ للكتابة لأنه وجد كل شيء مبهجًا؛ كذلك لم يرغب في المبالغة وهو ما كان يشعر أنه مجبور على فعله لو كتب. لكن

(1) **Briefe**, p 160.

هناك بهجة في اليوم التالي أيضًا «تحملني «أوتلا» فعلًا على جناحيها عبر العالم الصعب. الغرفة... ممتازة، هاوية، دافئة، وكل هذا في منزل يكاد يكون هادئًا تمامًا؛ كل ما يفترض مني أكله يتوفر حولي بكميات كبيرة،... والحرية الحرية فوق كل شيء.... على أية حال موقفي من السلّ اليوم مثل موقف طفل يتشبّث برداء أمه ... أحيانًا يبدو أن المخ والرئة توصّلا إلى اتفاق دون علمي. لا أستطيع الاستمرار على هذا المنوال، قال المخ، وبعد خمس سنوات أعلنت الرئة أنها مستعدة للمساعدة»[1].

وفي رسالته التالية يكتب: «أعيش مع «أوتلا» في زواج هين ومريح يقوم ليس على مبدأ التيار المعتاد الذي تمّ احتواؤه بعنف ولكن على الانعطافات الصغيرة لتيار يجري بانسياب ودونما تعرّج. لدينا منزل جميل سيكون فيه كل منكما كما أرجو سعيدًا»[2]. لكن قتامة تلقي ظلها على الخطاب: «أعلنت فيلس أنها ستأتي، بضعة سطور.. لا أستطيع فهمها، إنها استثنائية»[3].

تصل فيلس؛ هناك إشارة إلى زيارتها في مفكرته: «21 أيلول/سبتمبر، كانت فيلس هنا، قضت مدة ثلاثين ساعة في السفر لرؤيتي؛ كان يجب عليّ أن أَحُولَ دون ذلك. في رأيي تقاسي أشد البؤس، والذنب في جوهره ذنبي أنا. أنا لا أستطيع أن أتولى أمري، أنا عاجز كما أني متبلّد الشعور. أفكّر فيما

(1) **Briefe**, p 161.

(2) **Briefe**, p 165.

(3) Ibid, p 164.

يسبب إرباك بعض وسائل راحتي والتنازل الوحيد الذي أقدمه هو أن أتواضع لألعب دوري»[1].

الخطاب قبل الأخير لفيلس، وهو الأطول، كتب عشرة أيام قبل زيارتها لزوراو. إنه أسوأ خطاب كتبه على الإطلاق؛ لا بدّ من بذل جهد للاقتباس منه. كانت قد كتبت مرتين خلال هذه الفترة. في البداية لا يفتح خطابيها بل يضعهما جانبًا. يذكر لها ذلك في بداية الخطاب وكذلك عن قراءته لهما فيما بعد. ما يجده فيهما يشعره بالخزي لكنه ولمدّة طويلة كان ينظر إلى نفسه بعين فاحصة أكثر مما فعلت هي وينوي أن يشرح لهما ما رأته عينه.

هنا تظهر أسطورة المتصارعينِ داخله، إنها أسطورة تافهة وزائفة. لا يمكن أن تشمل صورة صراع التفاعلات الخفية عنده؛ يشوّه هذه التفاعلات عن طريق خلق بطولة من نزيفه، كما لو أن الصراع كان دمويًا. لكن حتى لو افترض أن للصورة بعض المصداقية فإنها تستدرج كافكا إلى ادّعاء كذبة أخرى: أنه تأكد في الأيام الأخيرة أن وصف المحارب الأفضل، كما يكتب، هي الأجدر به. لكن نعرف أن هذا الصراع، أو أي مسمّى آخر له، انتهى منذ مدة طويلة وأنه لا صلة لها بأي شيء بعد ذلك وعلى الأخص في هذه الأيام الأخيرة. هل يمكن اعتبار أنه قصد هذا التوكيد الكاذب على أن يكون سلوى لهما على غرار مجاملة نبيلة يقدّمها للمرأة المهانة والمرفوضة؟ فليكن كذلك، لكن بعد مدة وجيزة يصل بيان يمكن الاستشهاد به على أنه كافكا الأصيل:

(1) Diaries, II, pp. 184 - 85.

«أنا مخلوق كاذب، بالنسبة لي هذه هي الوسيلة الوحيدة للمحافظة على توازني، فقاربي هش»(545)، يشكل هذا مرحلة انتقالية إلى فقرة طويلة إلى حدّ ما تلخص تبصُّره في نفسه. كتابتها جيدة، إنها تمتّ إلى الأدب؛ يحبها كافكا لدرجة أنه ينسخها حرفيًّا في رسالة إلى ماكس برود ومرة أخرى في مفكرته. هذا مكانها المناسب. وسيدرك القراء لماذا لم تشمل في الوصف الحالي. يلي ذلك قسم طويل إلى حدّ ما عن تحوّل مصير المتصارعين وسيلان الدماء. يؤدّي ذلك إلى موضوع له أهمية كبرى بالنسبة له: «لا أعتقد أن هذا المرض هو سل، على الأقل ليس سلًّا بالدرجة الأولى، لكن بالأحرى علامة إفلاسي العام» (545). لكن لم يتم بعد الانتهاء من الدم والصراع ويتم استخلاص استدلالات إضافية منهما. فجأة يبزغ الفجر في هذه الفقرة: «لطفًا لا تسألي لماذا أضع حاجزًا. لا تذلّيني بهذه الطريقة»(545). هنا بوضوح يذكر أنه يقصيها عنه وأنه ليس هناك تفسير لذلك، ولو تكوّنت الرسالة فقط من هاتين الجملتين لكانت لها قوّة التعبير الإنجيلي. لكن يخفّف ذلك مباشرة عن طريق إيماءة فارغة وبالرغم من ذلك تبرز الحقيقة حالًا: «سُلّي الحقيقي أو بالأحرى.... سُلي المزعوم سلاح تبدو معه الذرائع الأخرى التي لا حصر لها المستعملة سابقًا والمتفاوتة عن «عجزي البدني» صعودًا إلى «عملي» ونزولًا إلى «نحْلي» نفعيّة وساذجة» (545 ـ 546).

في النهاية يُفشي لها سرًّا هو نفسه لا يصدّقه في الحاضر لكن لا بدّ وأن يكون صحيحًا: لن يستعيد عافيته أبدًا. بهذا ينهي نفسه بالنسبة لها وينسحب منها الآن عن طريق انتحار مسقط على المستقبل.

هكذا كانت محاولة تجنّب أعباء إضافية من طرفها هي التي أملت معظم هذه الرسالة. حيث إنه لم يعد متبقيًا لديه أدنى شعور نحوها فإنه لم يكن لديه أي عزاء فعلي يمنحها إياه. من سعادة «زوراو» التي كانت سعادة الحرية لم يكن في مقدوره استخراج أي مشهد حزن أو حتى ندم.

كتب آخر خطاب لفيلس في 16 تشرين الأول/أكتوبر ولا تدل كتابته إلا بصعوبة أن المكتوب موجّه لها. يقصيها بعيدًا عنه، رغم أنها فعلًا بعيدة جدًّا؛ لا تشملها عباراته الكامدة وتوجّه وكأنها لطرف ثالث. يبدأ باقتباس من رسالة من ماكس برود: كان «برود» قد كتب بأن رسائل كافكا تدل على هدوء عميق كما لو أنه كان سعيدًا في محنته. كتأكيد لذلك يعطي كافكا الآن وصفًا لزيارة فيلس الأخيرة. ربما تكون دقيقة؛ بالتأكيد باردة كالثلج: «كنت تعيسة بخصوص عدم جدوى زيارتك، وسلوكي المبهم بخصوص كل شيء. لم أكن غير سعيد» (546). خفّ شعوره بالبؤس حالما لاحظه واعترف به وظلّ رزينًا، شفتاه مقفلتان بإحكام، بإحكام تام. يتكوّن الجزء الأكبر من الخطاب من ردّ على ماكس برود، اقتبس في معظمه وأرسل قبل أربعة أيام. يخبرها بعد ذلك أن حالته الصحية ممتازة؛ لا يكاد يتجرّأ على سؤالها عن صحّتها. يقول بأنه أعطى ماكس، فلكس ڤلتش Felix Weltsch وأوسكار باوم Oskar Baum أسبابًا مفصّلة لمنعهم من زيارته ـ تحذيرًا لها بعدم المجيء مرة أخرى.

تمضي الفقرة الأخيرة على هذا النحو: «لا أعرف «كانط»، لكن الجملة تنطبق على أُمم فقط؛ تكاد لا تنطبق على حروب

أهلية، حروب داخلية، حيث يكون السلام من النوع المطلوب فقط لرماد الإنسان» (547).

بذلك يصدّ رغبة في المصالحة كانت فيلس قد أخفتها في اقتباس من «كانط». بالسلام الذي يطلبه الإنسان لرماده، انسحب خلف الموت بدرجة أكثر توكيدًا حتى من نهاية الرسالة السابقة. ليست هناك كلمة عن الرّماد في أي من مراسلاته المطوّلة مع أصدقائه في هذه الفترة.

لا تبرير لصحة أن المرض الذي بدأ كوسيلة لهدف أصبح في النهاية حقيقة. يظهر التبرير الفعلي في تلك السلسلة الجديدة من الملاحظات ـ «مذكرات الاكتافو الثالثة» Third Octavo Notebook التي بدأ كتابتها بعد يومين من آخر رسالة له لفيلس. تنقطع المفكرة التي احتفظ بها في السابق لمدة تطول عن سنة. المادة قبل الأخيرة في 1917 ـ تأتي في نهاية المطاف، كما يقال ـ تحوي العبارة التالية: «لم أكتب بعد العمل الحاسم، ما زلت موزعًا بين اتجاهين. العمل الذي ينتظرني هائل»[1].

(1) Diaries, p 190..

صدر للمترجم

- **اللعبة**، مسرحية بالإنكليزية مع ترجمة عربية قامت بها الدكتورة فاطمة نصر، النادي الأدبي، الرياض، 1994.

- ترجمة «**الكلمات المفاتيح**» لريموند وليمز مع تقديم لطلال أسد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، وطبعة ثانية من المركز الثقافي العربي، بيروت، 2007.

- **تربية من دون تعليم**، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2009.

- **بؤس الصحافة ومجد الصحافيين**، المركز العربي الثقافي، بيروت، 2009.

- **القبلية.. عجز الأكاديمي ومراوغة المثقف**، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، طبعة أولى 2011، طبعة ثانية 2012.

الكتاب

يقدم هذا الكتاب الفريد دراسة نادرة لرسائل علم من أعلام الأدب الحديث تتجلى فيها الحالة الإنسانية وتتضح العلاقة الوثيقة بين الحياة الفردية وتقلباتها والإنتاج الأدبي بأسلوب **كانيتي** الذي يجمع بين جمال العبارة وعمق التأمل.

يُحلل **كانيتي**، الحائز على جائزة نوبل، سيكولوجية **كافكا** وعلاقته مع الآخرين مقربين وكُتّاب، ويركز على عملية الكتابة ذاتها التي استحوذت على بطله.

بقدر ما نتعلم من معرفة أعمق لكافكا فإننا نكتشف جوانب أساسية من اهتمامات **كانيتي** ككاتب قدير تشغله قضايا العلاقات الإنسانية بتعقيداتها والشأن العام بمجمله ومسألة السلطة التي تتشظى في كل جوانب ذلك الشأن وتلك العلاقات.



ISBN 978-614-418-183-6
جداول Jadawel
www.jadawel.net